التعليقات اليسيرة على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى

(ولد ٦٦١- توفي ٧٢٨)

إعداد
أحمد بن عايد العَنَزي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصل الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد: حدثنا الشيخ صالح بن عبدالله بن حمد العصيمي عن جماعة من شيوخه وهو أول حديث سمعته منه بإسناده إلى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس مولى عبدالله بن عمرو، عن عمرو بن العاصي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الراحمونَ يرحمُهُمُ الرحمنُ، ارحموا من في الأرضِ، يرحمْكُمْ مَن في السماء»، ومن آكد الرحمة رحمة المعلمين بالمتعلمين بتسهيل العلم لهم وتلقينهم إياه، وهذا الكتاب الرابع في هذه الدورة التأصيلية الأولى سنة ١٤٤٦هـ وهو كتاب " العقيدة الواسطية" لشيخ الإسلام المجدد أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وقبل أن نبدأ بالقراءة والتعليق إليك ترجمة مختصرة لهذا الإمام رحمه الله تعالى، ونبذة مختصرة عن هذه الرسالة.

ترجمة شيخ الإسلام:

اسمه: هو أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن أبي محمد عبدالله ابن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله ابن تيمية الحرّاني.

مولده: ولد رحمه الله تعالى في ١٠ ربيع الأول ٦٦١هـ في بلدة حران، وهي تقع الآن ضمن الحدود التركية، وانتقل بهم والده إلى دمشق في سن السادسة بسبب اجتياح المغول.

شيوخه: منهم على سبيل المثال:

١- أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي.

٢- أحمد بن شَيبان.

٣- والده عبدالحليم بن عبدالسلام.

٤- جمال الدين يحيى ابن الصيرفي.

٥- أبو بكر الهروي.

٦- شمس الدين ابن أبي عمر الحنبلي.

٧- القاسم الإربلي.

٨- مجد الدين ابن عساكر.

٩- شرف الدين ابن القوّاس.

وبالجملة فعدد شيوخه تجاوزوا المئتين، في علوم شتى.

تلاميذه: منهم على سبيل المثال:
١- إبراهيم الرقي.
٢- أحمد بن إبراهيم الواسطي ابن شيخ الحزّامين.
٣- علم الدين البرزالي.
٤- كمال الدين ابن الزَّمْلَكاني.
٥- محمد بن أحمد بن عبدالهادي.
٦- محمد بن أبي بكر ابن القيم.
٧– يوسف جمال الدين المِزي.
٨-محمد بن عبدالله بن رُشَيِّق المالكي.
٩- الحافظ الذهبي.
مؤلفاته:
كثيرة منها: "الصارم المسلول على شاتم الرسول" - صلى الله عليه وسلم – و "منهاج السنة النبوية"، و "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"، و "العقيدة الواسطية"، و "الرسالة التدمرية"، و "الفتوى الحموية"، و "نقض التأسيس" المعروف باسم "تلبيس الجهمية"، و "درء تعارض العقل والنقل" وغيرها، ورسائل أخر كثيرة مجموعة في "مجموع الفتاوى".

وفاته: توفي رحمه الله تعالى في ١٠ من ذي القعدة ٧٢٨هـ وبلغ من العمر ٦٧ سنة، في سجن قلعة دمشق، وقد كان مسجونًا بسبب بعض أقواله التي خالف فيها أهل البدع في عصره فابتلي بالسجن عدة مرات حتى كان آخرها التي كانت فيها وفاته، وكانت جنازته مشهودة حضرها كبار الأعيان من العلماء والوجهاء وعموم الناس.

وأحسن من كتب في ترجمته وشيء من سيرته وجهوده العلمية والدعوية والجهادية هو تلميذه الشيخ محمد بن أحمد ابن عبدالهادي المقدسي ت٧٤٤هـ في كتابه [العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية]

نبذة عن هذه الرسالة :

[سبب تأليف العقيدة الواسطية]

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في مناظرته على العقيدة الواسطية في سبب تأليف هذه الرسالة: "ثُمَّ أَرْسَلْت مَنْ أَحْضَرَهَا وَمَعَهَا كَرَارِيسُ بِخَطِّي مِنْ الْمَنْزِلِ فَحَضَرَتْ «الْعَقِيدَةُ الواسطية» وَقُلْت لَهُمْ: هَذِهِ كَانَ سَبَبُ كِتَابَتِهَا أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيَّ مِنْ أَرْضِ وَاسِطٍ بَعْضُ قُضَاةِ نَوَاحِيهَا - شَيْخٌ يُقَالُ لَهُ «رَضِيُّ الدِّينِ الواسطي» مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ - قَدِمَ عَلَيْنَا حَاجًّا وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالدِّينِ وَشَكَا مَا النَّاسُ فِيهِ بِتِلْكَ الْبِلَادِ وَفِي دَوْلَةِ التتر مِنْ غَلَبَةِ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ وَدُرُوسِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَسَأَلَنِي أَنْ أَكْتُبَ لَهُ عَقِيدَةً تَكُونُ عُمْدَةً لَهُ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ فَاسْتَعْفَيْت مِنْ ذَلِكَ وَقُلْت: قَدْ كَتَبَ النَّاسُ عَقَائِدَ مُتَعَدِّدَةً؛ فَخُذْ بَعْضَ عَقَائِدِ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ فَأَلَحَّ فِي السُّؤَالِ وَقَالَ: مَا أُحِبُّ إلَّا عَقِيدَةً تَكْتُبُهَا أَنْتَ فَكَتَبْت لَهُ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ وَأَنَا قَاعِدٌ بَعْدَ الْعَصْرِ وَقَدْ انْتَشَرَتْ بِهَا نُسَخٌ كَثِيرَةٌ؛ فِي مِصْرَ؛ وَالْعِرَاقِ؛ وَغَيْرِهِمَا." اهـ [مجمل اعتقاد السلف (٣/ ١٦٤)].

إذن هذه الرسالة التي كتبها شيخ الإسلام فيها مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة وليست شاملة لجميع المسائل الاعتقادية، فكل من قال بما فيها فهو موافق لعقيدة أهل السنة والجماعة ومن خالفها فهو ليس من أهل السنة والجماعة.

فذكر في أولها أركان الإيمان الستة ثم شرع في تفصيل الكلام عليها وذكر ما يتفرع عنها من مسائل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاَللَّهِ شَهِيدًا؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: إقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا." اهـ.

الشرح:

ابتدأ المصنف رسالته بالبسملة اقتداءً بالكتاب العزيز وبسنة النبي صلى الله عليه وسلم في مراسلاته، والبسملة لها تقدير محذوف فمنهم من يقدره مؤخرًا ومنهم من يقدره مقدمًا، فإذا قلنا أن التقدير المحذوف مؤخر فيكون المعنى: بسم الله الرحمن الرحيم اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ، بسم الله الرحمن الرحيم اركب، وإذا قلنا أن التقدير المحذوف مقدم فيكون المعنى: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، اركب بسم الله الرحمن الرحيم.

والمختار جعل التقدير مؤخر لفائدتين:

الأولى: الحصر.

الثاني: التيمن بالبداءة باسم الله سبحانه.

ومعنى البسملة:

بسم: الباء حرف جر، يفيد الاستعانة أو التبرك، سم: أصلها اسم، حذفت الهمزة تخفيفًا، وهو اسم مجرور مضاف.

الله: اسم علم على نفس ذات الله سبحانه وتعالى لا يسمى به غيره، وهو بمعنى المألوه أي المعبود محبةً وتعظيمًا، وهو مضاف إليه مجرور بالإضافة وعلامة جره الكسرة.

الرحمن: أي ذو الرحمة الواسعة على وزن فعلان الدال على السعة والامتلاء، فهو اسم وصفة منصوب على أنه نعت لـ الله، وعلامة نصبه الفتحة= نعت منصوب.

الرحيم: اسم يدل على الفعل، وهو منصوب على أنه نعت لـ الله، وعلامة نصبه الفتحة= نعت منصوب.

والخلاصة: "بسم" جار ومجرور متعلق بمحذوف يقدر بحسب السياق – إن كان كتابة أو قراءة أو ركوب أو أكل ونحو ذلك-.

"الله" مضاف إليه مجرور، "الرحمن" و"الرحيم" نعتان منصوبان.

فيؤتى بالبسملة تبركًا واستعانةً باسم الله سبحانه في كل عمل مشروع.

وقوله في مقدمته: ليُظْهِرَه على الدين كله: أي يُعلي هذا الدين على غيره من الأديان فيكون هو الظاهر العالي على غيره.
وقوله: أشهد: الشهادة بمعنى الإقرار بالشيء يقينًا كأنك تشاهده وتعاينه، فنقر ونذعن يقينًا أن لا إله يستحق العبادة إلا الله سبحانه وتعالى، ونقر ونذعن يقينًا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله أرسله الله سبحانه وتعالى فهو رسول مرسل من رب العالمين فنطيعه فيما أمر ونصدقه فيما أخبر ونجتنب ما نهى عنه وزجر وألا نعبد الله سبحانه إلا بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.
لأن العبادة تقوم على ركنين:
الأولى: الإخلاص لله سبحانه وتعالى بالعبادة.
الثانية: المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم فيها وعدم الزيادة على ما جاء به.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:" أَمَّا بَعْدُ: فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ - أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - وَهُوَ: الْإِيمَانُ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ: خَيْرِهِ وَشَرِّهِ" اهـ.

الشرح: هنا يبين الشيخ موضوع هذه الرسالة، أنها متعلقة بذكر عقيدة الفرقة الناجية المنصورة إلى قيامة الساعة وهم أهل السنة والجماعة.
- الاعتقاد: مأخوذ من كلمة العقد، أي الربط بشدة وإحكام، فهذه عقيدة يتمسك بها بشدة وإحكام بلا شك فيها ولا ريب.
- وقوله الفرقة الناجية: لحديث الافتراق فهذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، فهي الناجية من الوعيد بالنار «...وتفترقُ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملَّةً، كلُّهم في النَّارِ إلَّا ملَّةً واحِدةً، قالوا: مَن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أَنا علَيهِ وأَصحابي».
من رواية عبد الله بن عمرو، أخرجه الترمذي (٢٦٤١) واللفظ له وقال: حسن غريب مفسر لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه، والطبراني (١٤/٥٣) (١٤٦٤٦)، والحاكم (٤٤٤).
والحديث في إسناده ضعف لكن له شواهد ومتابعات.
وصح من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي (ح٢٦٤٠) وأبو داود (ح٤٥٩٦) وابن ماجه (ح٣٩٩١) من غير ذكر «كلها في النار».

والذي نعتقده وندين الله سبحانه به أنهم هم أهل السنة والجماعة أصحاب هذا المعتقد الذي سطره شيخ الإسلام في رسالته فكل من خالف ما ذكر في هذه الرسالة فهو ليس من الفرقة الناجية.

-وقوله المنصورة إلى قيامة الساعة: لحديث «لا يَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي ظاهِرِينَ، حتَّى يَأْتِيَهُمْ أمْرُ اللَّهِ وهُمْ ظاهِرُونَ.» [البخاري (ح٧٣١١) مسلم (ح١٩٢١)] من رواية المغيرة بن شعبة
وفي لفظ: «لا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي قائِمَةً بأَمْرِ اللهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ، أوْ خالَفَهُمْ، حتَّى يَأْتِيَ أمْرُ اللهِ وهُمْ ظاهِرُونَ علَى النَّاسِ.» [مسلم (ح١٠٣٧)] من رواية معاوية.
وقوله: إلى قيام الساعة، يعني إلى قرب قيام الساعة، لأن الساعة تقوم على شرار الخلق وليس فيهم مسلم يقول الله الله.
وقوله أهل السنة والجماعة: هو مصطلح يطلق على الجماعة الذين يتمسكون بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويقال عنهم كذلك السلفيون، فالسنة: هي طريقة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه في العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات.
والجماعة: إشارة إلى الاجتماع وهو ضد الاختلاف والافتراق، فهم مجتمعون على الحق وعلى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

ثم ذكر الشيخ أركان الإيمان الستة وسيأتي الكلام عليها في موضعها لكنه ذكر: "والبعث بعد الموت" بدلًا من ذِكْر: واليوم الآخر، فالبعث بعد الموت من أخص خصائص اليوم الآخر فلعل الشيخ ذكر ذلك دون غيره لجلالة هذه المسألة وعظمتها، والذي يؤمن بالبعث بعد الموت لا بد له أن يؤمن باليوم الآخر لزومًا.
والبعث بعد الموت هو الإحياء بعد الموت، فيحيي الله عز وجل الخلق بعد موتهم لبدء الحساب ومجازاة المحسن لإحسانه والمسيء لإساءته.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:" وَمِنْ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ: الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾" اهـ

الشرح: الإيمان بالله سبحانه هو الإقرار الجازم بالله سبحانه وللإيمان بهذا الركن يترتب عليه الإيمان بأربعة أمور:
١- الإيمان بوجود الله: يعني الإقرار الجازم بوجود إله لهذا الكون أوجه من العدم وهو الله سبحانه.
٢- الإيمان بربوبية الله: يعني الإقرار الجازم بتفرد الله سبحانه بالخلق والملك والتدبير فإن هذه من أخص خصائص الربوبية.
٣- الإيمان بإلوهية الله: يعني الإقرار الجازم باستحقاق الله وحده لأفعال العباد التعبدية فلا تكون إلا لله وحده.

٤- الإيمان بما له من الأسماء والصفات: يعني الإقرار الجازم بأن الله له أسماء حسنى وصفات كاملة عليّة متصف بها.

فكلام شيخ الإسلام هنا عن هذا الأمر الرابع وهو الإيمان بالأسماء والصفات، ولعلل سبب تخصيصه ذلك كثرة الخلاف في زمنه في هذا الباب بين الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والمجسمة وغيرهم، فتوسع في التفصيل والتقعيد لهذه المسألة ووضح فيها عقيدة السلف الصالح رضي الله عنهم في أسماء الله سبحانه وصفاته.

فذكر في هذه الفقرة ثلاثة قواعد:

الأولى: وهي قاعدة: أننا نصف الله بما وصف به نفسه في القرآن وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته.

والمعنى: أننا لا نثبت لله سبحانه شيء من الأسماء والصفات إلا إن ثبت وجود هذا الاسم في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الصحيحة، فلا يجوز أن نثبت لله أسماء وصفات استدلالًا بالقياس، أو العقل.

إذن حتى تكون من المحققين لركن الإيمان بالله تعالى ومن ضمن ذلك الإيمان بما له من الأسماء والصفات يجب عليك أن لا تثبت لله إلا ما أثبته له لنفسه في القرآن أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم في السنة الصحيحة وسيذكر الشيخ أمثلة على ذلك.

الثانية: وهي قاعدة: إثبات الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.

*من غير تحريف: التحريف هو تغيير النص لفظًا أو معنى.

- فالتحريف اللفظي: يكون إما بزيادة أو نقص أو تغيير حركة إعرابية وغير إعرابية.

كتحريف الجهمية {وكلم اللهُ موسى تكليما} بنصب لفظ الله فيكون المعنى الذي يريدونه أن موسى عليه الصلاة والسلام هو الذي كلم الله سبحانه وليس الله المتكلم، حتى ينفوا عن الله تعالى صفة الكلام.

-والتحريف المعنوي: هو إبقاء اللفظ مع صرف المعنى عن المراد به، كتحريفهم لاستوى بمعنى استولى، كتحريف الأشاعرة.

*ولا تعطيل: التعطيل هو نفي صفات الله تعالى وإنكار قيامها بذاته، وهو في باب الأسماء والصفات على أربعة أقسام:

-إثبات الأسماء وبعض الصفات وتحريف باقيها كمذهب الكُلاّبية والأشاعرة والماتريدية.

-إنكار الصفات وإثبات الأسماء في الجملة كالمعتزلة.

-إنكار الأسماء والصفات مطلقًا كالجهمية.

-وصف الله تعالى بسلب النقيضين يعني يقولون: لا حي ولا ميت، ولا موجود ولا معدوم، وهذا مذهب الباطنية والملاحدة.

*ومن غير تكييف: التكييف هو حكاية كيفية أي هيئة الصفة.
فلا يجوز الخوض في كيفية صفات الله تعالى سواء الذاتية أو الذاتية والفعلية بمعنى لا يجوز السؤال والبحث عن هيئة صفات الله فتقول كيف وجهه وكيف عينه وكيف ينزل وكيف يستوي وكيف يجيء ونحو ذلك فتبحث عن هيئة تلك الصفة.
وليس معنى ذلك أن صفات الله تعالى لا كيف لها؛ لأن الذي لا كيف له أي لا هيئة له هو العدم والله منزه عن ذلك، لكن المقصود هو أننا نجهل حقيقة هذه الكيفية للصفات ولأن إثبات أو معرفة كيفية الأمور الغيبية – والله غيب بالنسبة لنا- لا بد من توفر ثلاثة أمور:
الأول: رؤية مثيل لهذا الأمر الغيبي حتى تعرف كيفيته، والله لا مثيل له فهو واحد أحد لا مثل له ولا ند، إذن يمتنع معرفة كيفية الصفة من هذا الجانب.
الثاني: رؤية هذا الأمر الغيبي بنفسه حتى نعرف كيفيته وكيفية صفاته، والله لم نره ولم يره أحد من خلقه في الدنيا فيمتنع إذن معرفة كيفية صفات الله من هذا الجانب.
الثالث: نقل صحيح من الكتاب أو السنة النبوية يخبر عن كيفية هذه الصفات بأن هيئتها وشكلها كذا وكذا، والله سبحانه أخبرنا عن صفاته ولم يخبرنا عن هيئتها، والرسول صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن صفات الله ولم يخبرنا عن هيئتها، إذن يمتنع معرفة كيفية صفات الله تعالى من هذا الجانب.
وحينها لا يمكن معرفة كيفية صفات الله تعالى والسؤال عن هذا سؤال أهل البدع والضلال فقد جاء رجل إلى الإمام مالك رحمه الله فقال له: يا إمام، الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟
فقال" الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" اهـ.
انظر تخريج هذا الأثر [الأثر المشهور عن الإمام مالك في صفة الاستواء دراسة تحليلية]،

*ولا تمثيل: يعني ومن غير تمثيل، والتمثيل: هو إثبات مثيل لله عز وجل في ذاته أو صفاته وهو على نوعين:
-تمثيل الخالق بالمخلوق كحال المشبهة الذين يقولون له وجه كوجهي، ويد كيدي، وينزل كنزولي، فيشبه صفات الخالق بصفات المخلوق.
- تمثيل المخلوق بالخالق كحال النصارى الذين شبهوا عيسى عليه الصلاة والسلام بالإله، فهذا النوع فيه إثبات شيء للمخلوق مما هو من خصائق الخالق إما بالصفات أو الأفعال أو الحقوق.

الثالثة: وهي قاعدة النفي والإثبات: ودليلها الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

فقول الله: ليس كمثله شيء، هذا نفي أن يكون هناك ما يماثل الله سبحانه فهو واحد أحد لا نظير له ولا ند له ولا مثيل.

وقول الله: وهو السميع البصير، هذا إثبات فقد أثبت لنفسه صفتي السمع والبصر.

فتكون القاعدة: إثبات صفات الله تعالى مع نفي المماثلة، فنثبت لله سبحانه وتعالى ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم مع التنزيه المطلق من أن يماثله شيء من مخلوقاته.

فتستعمل هذه القاعدة استدلالًا بهذه الآية في جميع الصفات، فقل في جميع الصفات كالقول في صفتي السمع والبصر، فالله أثبت لنفسه أن له سمعًا وبصرًا، وأثبت أن للمخلوق سمع وبصر ﴿إِنَّا خَلَقنَا الإنسانَ مِن نُطفَةٍ أَمشاجٍ نَبتَليهِ فَجَعَلناهُ سَميعًا بَصيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، لكن سمع الله وبصره ليس كسمع المخلوق وبصره، وهكذا تستعمل هذه القاعدة في سائر الصفات كما سيأتينا بعد قليل من كلام المصنف.

إذن الآية فيها رد على طائفتين:

الأولى: الممثلة: الذين يمثلون صفات الله بصفات خلقه فقال الله سبحانه {ليس كمثله شيء..}

الثانية: المعطلة: الذين ينفون صفات الله تعالى فقال سبحانه {وهو السميع البصير}.

وهذه الآية فيه نفي النقص عن الله سبحانه ثم إثبات الكمال وهذا كما يقال: التخلية قبل التحلية، فلا بد من نفي العيوب قبل ثم إثبات الكمال.

ونحن نقول: من غير تمثيل ولا نقول من غير تشبيه، لأمور:

أولها: أن نفي التمثيل هو الوارد في النصوص بخلاف التشبيه فالتعبير بما يوافق النص القرآني مقدم على غيره وهذه طريقة أهل السنة.

ثانيها: أن نفي التشبيه يوهم النفي المطلق والتشبيه عند طوائف أهل الضلال معناه إثبات الصفات فحينما تقول: من غير تشبيه هو يفهمها: من غير إثبات للصفات! وهذا غير صحيح بل نثبت لله الصفات من غير مماثلة لصفات المخلوقين، فلدفع هذا التوهم لا نعبر بنفي التشبيه.

ثالثها: أن ما من شيئين من الأعيان إلا ويوجد هناك اشتراك والاشتراك نوع من أنواع التشبيه، مثلًا الوجود والحياة، فالله حي وموجود، والمخلوق حي وموجود لكن ليس وجود الله وحياته كوجود المخلوق وحياته، والله له سمع وبصر والمخلوق له سمع وبصر لكن ليس سمع الله وبصره كسمع المخلوق وبصره، فهذا نوع من الاشتراك وهو نوع من التشبيه الجزئي ونفيه بالإطلاق لازمه الوقوع في التعطيل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:" فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تعالى وَآيَاتِهِ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ وَلَا كُفْءَ لَهُ وَلَا نِدَّ لَهُ.

وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ." اهـ

الشرح:

يعني إن أثبَتَ اللهُ عز وجل لنفسه وأثبَتَ له رسوله صلى الله عليه وسلم صفات معينة فلا يجوز نفي هذه الصفات عن الله سبحانه وتعالى بدعوى التنزيه، فالله أعلم بنفسه، ورسوله أعلم بالله، فلو كان هذا الوصف فيه نقص بحق الله سبحانه وتعالى لما وصف به نفسه ولما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، فكما نفى الله عن نفسه الظلم والسِنَة والزوجة والولد والعجز كان يمكنه أن ينفي اتصافه بصفة الاستواء والعلو والمجيء والاتيان والنزول والوجه واليدين والعينين ونحو ذلك لو كانت من الصفات التي لا تليق به.

لكن لما أثبتها وذكره في سياق المدح دل على أنها صفات كمال تليق به سبحانه يُحبُ أن يوصف بها فأخبر عباده عنها ليتقربوا إليه عن طريقها، ودل كذلك على أن أي صفة يوصف بها الرب سبحانه وتعالى يجب إثباتها مع اعتقاد التنزيه المطلق لله سبحانه وتعالى من أن تكون صفاته ناقصة أو تكون مماثلة لصفات المخلوقات.

فطريقة أهل السنة إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي ما نفاه الله عن نفسه فالذي ينفي ما أثبته الله لنفسه كنفي المعطلة الجهمية لعلو الله واستواء الله ونزول الله ومجيء الله ورؤية الله وغير ذلك من الصفات التي سيأتي الكلام عليها في موضعه فهؤلاء من أهل الزيغ والضلال بل من أهل الكفر والإلحاد وليس على طريقة السلف.

وقوله: ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، الكلم جمع كلمة، يعني لا يحرفون كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم عما دل عليه الكلام من المعنى، كما فعل الجهمية وأمثالهم من أهل الضلال، وقد سبق بيان معنى التحريف وأقسامه.

وقوله: ولا يلحدون في أسماء الله تعالى وآياته، الإلحاد بمعنى الميل والانحراف عن القصد أو الحق، وهذا في التعريف اللغوي وهو تعريف عام وهو المقصود هنا، وليس المراد بالإلحاد هو نفي وجود الله، فكل من يحرف اللفظ عما وضع له، وينفي صفات الله سبحانه وتعالى إما بالتعطيل الكلي أو التعطيل الجزئي فهو داخل في مسمى الإلحاد بالمعنى اللغوي العام، لأنه مال وانحرف عن الحق الذي يجب عليه أن يثبته فيما يتعلق بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم في صفات الله سبحانه، فلو قال أحدهم: قول الله ﴿قالَ يا إِبليسُ ما مَنَعَكَ أَن تَسجُدَ لِما خَلَقتُ بِيَدَيَّ أَستَكبَرتَ أَم كُنتَ مِنَ العالينَ﴾ [ص: ٧٥]، فزعم أن اليدين هنا تعني النعمة أو القدرة فإن هذا من الإلحاد،

ومن زعم أن ﴿الرَّحمنُ عَلَى العَرشِ استَوى﴾ [طه: ٥] أي استولى فهذا من الإلحاد، وعلى هذا فقس.

والإلحاد يكون في أسماء الله وفي آياته كما قال المصنف رحمه الله تعالى:

- قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسماءُ الحُسنى فَادعوهُ بِها وَذَرُوا الَّذينَ يُلحِدونَ في أَسمائِهِ سَيُجزَونَ ما كانوا يَعمَلونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]

فإذا سميت الله بما لم يسم به نفسه، أو نفيت عنه ما سماه نفسه، أو سميت غير الله بما يختص به من الأسماء فكل هذا من الإلحاد في أسماء الله سبحانه.

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ يُلحِدونَ في آياتِنا لا يَخفَونَ عَلَينا أَفَمَن يُلقى فِي النّارِ خَيرٌ أَم مَن يَأتي آمِنًا يَومَ القِيامَةِ اعمَلوا ما شِئتُم إِنَّهُ بِما تَعمَلونَ بَصيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]

وآيات الله أي العلامات الدالة على الله سبحانه وتعالى، فالإلحاد فيها هو الميل عنها إما بالتكذيب أو السخرية أو بالتحريف، وآيات الله تعالى على نوعين، آيات كونية وآيات شرعية.

فالآيات الكونية هي مخلوقات الله تعالى، والآيات الشرعية هي أوامر الله سبحانه وكلامه المنزل على رسله.

قوله: ولا يكيفون: يعني لا يخوضون في كيفية صفاته الله تعالى أنها كذا وكذا، فهم يفوضون العلم بكيفية صفاته مع اعتقاد أن لصفاته سبحانه كيفية وهيئة هو أعلم بها ولم يخبرنا بها؛ لأنه كما قلنا أن الذي لا كيف له هو العدم، وهذا هو مذهب السلف هو تفويض كيفية الصفات بأن تكل العلم بها إلى الله سبحانه.

وهناك مذهب يقال عنهم مذهب المفوضة وهم الذين يفوضون معاني الصفات وكيفيتها فيقولون الله أعلم بمراده من هذه الصفات والله أعلم بكيفية الصفة، وهم زيادة على جهلهم بمعاني الصفة يصرفون اللفظ عن ظاهره مع عدم التعرض لبيان المعنى المراد منه، فلازم مذهبهم أن الله عز وجل يخاطبنا بما لم يفهم مع أن الله سبحانه حث على التفكر والتفقه والتعقل والتدبر، فإنزال نصوص غير مفهومة وغير معلومة المعنى ينافي الحكمة من إنزال القرآن.

لذا قال عنهم شيخ الإسلام رحمه الله أنهم أهل التجهيل وبين فساد مذهبهم كما في رسالته الفتوى الحموية.

الخلاصة: أن هناك تفويض لكيفية الصفات، وهو مذهب السلف.

وهناك تفويض لمعاني الصفات وكيفيتها، وهو مذهب الخلف أهل التجهيل وهو قول بدعي ضال.

قوله: ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه: التمثيل هو اعتقاد أن هناك مطابقة من كل وجه، كالذي يقول أن لله يد كيدي، ووجه كوجهي، ونزول كنزولي، فوصف الله سبحانه بصفات المخلوق معتقدًا أنها مماثلة لبعض، فأهل السنة والجماعة لا يمثلون الله بصفات خلقه لأن الله تعالى قالها في صريح العبارة ﴿ليس كمثله شيء﴾ فقد نفى وجود المماثلة وهذا قول قاطع.
ثم علل الشيخ وبين علة ذلك فقال: لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفء له ولا ند له: فهذه العبارة فيها تأكيد تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أي مشابهة أو مساواة مع المخلوقات سواء
في أسمائه، أو صفاته، أو سلطانه وعظمته.

*لا سمي له: السمي هو من يُشاركه في الاسم أو يُساويه فيه.
يُقال: فلان سمي فلان إذا اشتركا في الاسم.
وفي المعنى الشرعي: لا يوجد من يُساوي الله في أسمائه الحسنى أو يُشاركه فيها على الحقيقة. أسماء الله (مثل الرحمن، العزيز، الخالق) خاصة به، وإن سُمي غيره ببعض هذه الأسماء (كـ"رحيم" للبشر)، فهي رحمة مقيدة وجزئية وليست مطلقة كما لله.
قال الله سبحانه ﴿هَل تَعلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] وهذا سؤال استفهامي بمعنى النفي يعني لا تعلم له مساميًا ولا مشابهًا.

*لا كفء له: الكفء: هو المماثل أو المساوي في الصفات أو القدر.
يُقال: فلان كفء فلان إذا كان نظيرًا له في المنزلة أو الخصائص.
المعنى الشرعي: لا يوجد من يُساوي الله أو يُماثله في صفاته، سواء في العلم، القدرة، الحياة، أو غيرها؛ فالله متفرد بصفات الكمال المطلق، فلا يوجد له نظير أو مثيل.
قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، أي لا يماثله أحد في ذاته أو صفاته.

*لا ند له: الند: هو النظير أو المقابل الذي يُساوي الآخر في القوة أو المنزلة.
يُقال: فلان ند لفلان إذا كان مماثلاً له في القدرة أو الشأن.
المعنى الشرعي: لا يوجد من يُنازع الله في سلطانه أو يُساويه في عظمته وقدرته؛ فالله متفرد بالألوهية والربوبية، فلا شريك له ولا معارض.
قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

وقوله: ولا يقاس بخلقه: القياس هو إلحاق الشيء بمثيله، فأهل السنة لا يقيسون الله بخلقه ولا يلزمون الله بلوازم المخلوقات، فهم وقعوا في هذا القياس فترتب على ذلك نفي صفات الله تعالى، على سبيل المثال: في إثبات علو الله سبحانه بذاته فوق خلقه، قالوا إن كان الله في السماء فمعنى هذا أنه داخل مخلوق من مخلوقاته وبالتالي الله أصغر من مخلوقاته وهي السماء وهذا نقص بحق الله! وفي نزول الله تعالى في الثلث الأخير من الليل يقولون لو قلنا ينزل معنى ذلك أنه خلا من مكان ودخل في مكان آخر وأنه داخل الأرض وإذا كان في جزء من الأرض ليل ونزل الله في ذلك الوقت، سيكون في الجزء المقابل النهار فإن تبدل الحال وصار النهار ليلا والعكس انتقل الله تعالى إلى ذلك الجزء الذي حل فيه النهار وبالتالي يكون الله دائمًا في نزول! وغير ذلك من اللوازم الفاسدة المذمومة التي قاسوا بها الخالق على المخلوق فترتب عليه ذكر هذه اللوازم كل هذا فرارًا من إثبات صفات الله عز وجل فهم كما يقول أهل العلم مثلوا ثم عطلوا، فانتقلوا من كفر إلى كفر أشد.

وحمى الله أهل السنة من الوقوع في هذه المزالق، فهم يعتقدون أن الله سبحانه مهما أثبتنا له من الأسماء والصفات فهي أسماء وصفات تليق بالله سبحانه لا تماثيل مخلوقاته ولا تلزمه لوازم مخلوقاته لأنه واحد أحد لا كفء له ولا ند ولا نظير.

ثم قال: " فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ" اهـ
وهذا كالتوطئة والتمهيد لقبول الكلام فالله أخبر أنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدقهم قولًا وأفصحهم بيانًا، فإن كان كذلك وجب قبول كلامه على ما هو عليه فلو كان الظاهر من الكلام غير مراد لصرح هو بذلك لكنه لما ذكره كما هو على ظاهره فلا يراد منه إلا ظاهره وحقيقته.
- فالله أعلم بنفسه وبغيره: ﴿...قالَ أَلَم أَقُل لَكُم إِنّي أَعلَمُ غَيبَ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَأَعلَمُ ما تُبدونَ وَما كُنتُم تَكتُمونَ﴾ [البقرة: ٣٣]
- وأصدق قولًا: ﴿وَمَن أَصدَقُ مِنَ اللَّهِ قيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]
- وأحسن حديثًا: ﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ لَيَجمَعَنَّكُم إِلى يَومِ القِيامَةِ لا رَيبَ فيهِ وَمَن أَصدَقُ مِنَ اللَّهِ حَديثًا﴾ [النساء: ٨٧]

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:" ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ؛ بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَلِهَذَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.
وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ به نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، فَلَا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا

جَاءت بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ." اهـ

الشرح: الصدق: هو مطابقة الخبر للواقع، فالرسل صادقون في كلامهم بما جاؤا به من الوحي عن الله سبحانه وتعالى، ومُصَدَّقُون من قِبَلِ الله تعالى بتأييده لهم بما يدل على صدقهم فيجب تصديقهم ومن كذّب نبيًا فهو كافر.

وهذا بخلاف الذين يفترون على الله تعالى الكذب فيقولون عليه ما لا يعلمون بناء على آرائهم وعقولهم الفاسدة، كالذين يحرفون صفات الله بصرفها عن معانيها، أو يعطلونها بالنفي، أو يمثلون صفاته بصفات خلقه، فهؤلاء نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عما يصفونه به بما لا يليق به، وسلّم على رسله المرسلين "لسلامتهم من الذنوب والآفات وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات" اهـ [تفسير السعدي].

وقوله: وهو سبحانه قد جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات: يستفاد منه أن صفات الله تعالى تنقسم إلى:
*صفات مثبتة: وهي الصفات التي أثبتها لنفسه في كتابه وأثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم، وهي كل صفة كمال ثبتت في القرآن والسنة: كالرحمة والقدرة والسمع والبصر والاستواء والعلو والوجه واليدين والعينين والنزول والمجيء والإتيان.. إلخ ما سيأتي ذكره في موضعه.

*صفات منفية: وهي التي نفاها عن نفسه ونفاها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، وهي كل صفة نقص ثبت في القرآن والسنة نفيها: كالتعب والإعياء والسنة والنوم والشريك والولد والمثيل والظلم.. إلخ.

ولا بد مع نفي الصفات المنفية اعتقاد كمال ضدها لأن النفي المحض ليس بكمال، وإنما الكمال أن ينفي النقص مع إثبات كمال ضده، فالله نفى عن نفسه الظلم يقابل ذلك كمال عدله، ونفى عن نفسه السِنَة وهي بداية النوم يقابل ذلك كمال قيوميته فكل نفي في صفات الله تعالى يقابله كمال ضده، وعلى هذا فقس.

فإذا تبين لك أن: الله أعلم بنفسه وبغيره وأنه أصدق قيلًا وأحسن حديثًا وأن رسله صادقون مصدقون، إذن لا يجوز الانحراف والانصراف عما ورد في الكتاب والسنة؛ لأن ما جاء في الكتاب

والسنة هو الطريق المستقيم الذي كان عليه الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.
فنستخرج من ذلك قاعدة وهي: أن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية، أي موقوف اعتقاد ثبوتها ونفيها على الكتاب والسنة.

ثم سرد الشيخ رحمه الله تعالى من الأدلة القرآنية والحديثية ما يبلغ مئة وإحدى عشرة آية وستة عشر حديثًا، مقتصرًا عليها للدلالة على أسماء الله سبحانه وتفرده بالصفات، وأن هذه الأسماء والصفات توقيفية لا تثبت ولا تنفى إلا بالقرآن والسنة، والإثبات والنفي بناء على ما سبق تقريره من القواعد، فأخبر أن هذه النصوص جمعت بين النفي والإثبات.
إذن التنزيه قائم على هذين الأصلين: نفي النقائص، وإثبات الكمال لله سبحانه وتعالى.

وهنا قاعدة مهمة جدًا وهي: أن كل اسم ثبت لله سبحانه وتعالى فهو متضمن لصفة أو أكثر ولا عكس، بمعنى أن الأسماء الثابتة لله تدل على صفة، لكن ليس كل صفة نثبتها لله تعالى يؤخذ منها اسم لله سبحانه، فالله اسم يتصف بصفة الألوهية، الرحمن اسم يتصف بصفة الرحمة، العزيز اسم يتصف بصفة العزة، وهكذا، وهناك صفات لا يؤخذ منها اسم مثل: صفة الغضب فلا يسمى الله بالغاضب، صفة الكره فلا يسمى الله الكاره وهكذا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:" وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.
وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، (أي لا يُكْرِثُهُ ولا يُثْقِلُهُ).
وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ."اهـ

الشرح: قوله: وقد دخل في هذه الجملة: يعني الجملة السابقة أنه "جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات.."، وقيل أن المقصود بالجملة السابقة "ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه.."، ثم ذكر الأدلة من الكتاب والسنة على ما يدل فيها ثبوت الأسماء والصفات لله سبحانه.
وسورة الإخلاص جمعت بين النفي والإثبات، نفي النقص وإثبات الكمال.

إثبات الكمال في قوله: الله أحد، الله الصمد، ففيها إثبات الأحدية فالله واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله؛ فهو متفرد بالعظمة والجلال والكبرياء.
والصمدية: ومعنى الصمد أي الذي يُقصد في طلب الحوائج والمطالب منه؛ لأنه كامل لا نقص فيه فهو السيد المقصود في الحوائج، فالصمدية تفيد الكمال في السيادة وطلب الحوائج منه.
فنفي النقص بقوله: لم يلد ولم يولد، رد على اليهود الذين زعموا أن عزيرًا ابن الله، والنصارى الذين زعموا أن عيسى عليه السلام ابن الله، والمشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله.
ونفي النقص بقوله: ولم يكن له كفوا أحد: ففيه نفي المثيل والنظير لله سبحانه وتعالى.
وقوله: التي تعدل ثلث القرآن، وذلك لحديث أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قالوا: وكيْفَ يَقْرَأْ ثُلُثَ القُرْآنِ؟ قالَ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ.» [صحيح مسلم (ح٨١١)]
ومعنى أنها تعدل ثلث القرآن: ذلك لأن القرآن ثلاثة أثلاث: ثلث في التوحيد بأنواعه، وثلث في القصص، وثلث في الأحكام، فسورة الإخلاص داخلة في الثلث الأول وهو التوحيد حيث أنها تتكلم عن الله سبحانه وتعالى وصفاته، فهي تعدل ثلث القرآن في الجزاء يعني الثواب لا في الإجزاء يعني لا تكفي عن قراءة غيرها يعني لو شخص قرأ سورة الإخلاص بدلًا من سورة الفاتحة في الصلاة فهذا لا يكفيه بل يجب عليه قراءة الفاتحة.

وقوله عن آية الكرسي:" وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه.." هذا فيه دلالة على أن آيات الله تتفاضل فهناك آيات أفضل من غيرها وكلها ذات فضل، وهذه الآية من سورة البقرة تسمى بآية الكرسي لاحتوائها على ذكر الكرسي بقوله {وسع كرسيه السماوات والأرض} والكرسي هو موضع قدمي الرب سبحانه، وأما العرش فهو سرير ملكه عز وجل فهو فوق عرشه.
وهي أعظم آية كما ورد في الحديثعن أُبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا أَبا المُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِن كِتابِ اللهِ معكَ أَعْظَمُ؟»
قالَ: قُلتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أَعْلَمُ.
قالَ: «يا أَبا المُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِن كِتابِ اللهِ معكَ أَعْظَمُ؟» قالَ: قُلتُ: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}.
قالَ: «فَضَرَبَ في صَدْرِي، وقالَ: واللَّهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبا المُنْذِرِ.» [صحيح مسلم (ح٨١٠)]
فالله سبحانه سمّى ووصف نفسه بهذه الآية بأنه:
- الله: وهو اسم علم يدل على نفس الله بمعنى المألوه أي المعبود.
- الحي: أي ذو الحياة الكاملة لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال، ولا نقص بوجه من الوجوه.
- القيوم: أي القائم بنفسه والقائم على غيره.

وهذان الأسمان: الحي والقيوم قيل أنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله عز وجل به أجاب.

- لا تأخذه سنة: وهذا نفي النقص: والسنة هي مقدمة النوم الذي يسمى بالنعاس.
- ولا نوم: وهذا نفي النقص: والنوم هو الحالة الكاملة لفقدان الوعي المؤقت لذا يثقل الرأس.
والسنة والنوم من صفات النقص ونفيها يقتضي إثبات كمال ضدها وهي صفتي الحياة والقيومية:
فلكمال حياته وقيوميته لا يحتاج للنوم ولا ينام ولا ينعس، قال ابن كثير رحمه الله تعالى:" لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ وَلَا غَفْلَةٌ وَلَا ذُهُولٌ عَنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَمِنْ تَمَامِ الْقَيُّومِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَعْتَرِيهِ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، فَقَوْلُهُ لَا تَأْخُذُهُ أَيْ لَا تَغْلِبُهُ سِنَةٌ وَهِيَ الْوَسَنُ وَالنُّعَاسُ، وَلِهَذَا قَالَ: وَلَا نَوْمٌ لِأَنَّهُ أَقْوَى مِنَ السِّنَةِ" اهـ [تفسير ابن كثير، سورة البقرة آية (٢٥٥)]
- يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم: والعلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، فالله لكمال علمه يعلم المستقبل والماضي والحاضر.
- العلي: من العلو وهو الارتفاع والسمو، فالله متصف بعلو الذات وعلو الصفات.
- العظيم: ذو الكبرياء والقوة والرفعة والسلطان والإجلال.
والفرق بين العلي والعظيم: أن العلي يركز على الرفعة والسمو في الذات وفي القدر والقهر مع لزوم إثبات علو الله فوق خلقه، وأما العظيم فهو يركز على الكمال المطلق والكبرياء في الذات والصفات والسلطان مع لزوم التأكيد على استحقاق الله للتعظيم المطلق.
وتأمل في قوله تعالى {وسع كرسيه السماوات والأرض} فإذا كان هذا المخلوق وهو الكرسي شمل السماوات والأرض، والعرش أعظم من ذلك، فمن باب أولى أن يكون الله سبحانه وتعالى أعظم.

وقول الشيخ: ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح"
دليله ما رواه البخاري في [صحيحه معلقًا (ح٥٠١٠)] عن أبي هريرة رضي الله عنه «وَكَّلَنِي رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحِفْظِ زَكاةِ رَمَضانَ، فأتاني آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعامِ فأخَذْتُهُ، فَقُلتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقَصَّ الحَدِيثَ، فقالَ: إذا أَوَيْتَ إلى فِراشِكَ فاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ، لَنْ يَزالَ معكَ مِنَ اللَّهِ حافِظٌ، ولا يَقْرَبُكَ شيطانٌ حتَّى تُصْبِحَ، وقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: صَدَقَكَ وهو كَذُوبٌ، ذاكَ شيطانٌ.»
إذن: نثبت أن من أسماء الله سبحانه: الله، الأحد، الصمد، الحي، القيوم، العلي، العظيم.
فهو متصف بصفة: الألوهية والأحدية، والصمدية، والحياة، والقيومية، والعلو، والعظمة.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾" اهـ

الشرح: [إثبات حياته وعلوه وقربه وأزليته وأبديته]
سبق بيان معنى الحياة: فالله حي لا يموت دال على إثبات صفة الحياة فلا يلحق حياته فناء وهذا دال على اتصافه بصفة الحياة الكاملة وفيه دلالة على أبديته سبحانه لأنه إن كان حي لا يموت إذن هو الآخر الذي ليس بعده شيء.
والأول: أي الذي لم يكن شيء قبله فهو أول في ذاته وصفاته وأفعاله.
والظاهر: من الظهور وهو العلو.
والباطن: من القرب وإحاطته بكل شيء.
فهو عال على خلقه قريب منهم بعلمه.
إذن: ثبت أن من أسماء الله سبحانه: الحي، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن.
فهو متصف بصفة: الحياة، والأولية، والآخرية، والظاهرية، والباطنية.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾، وهو ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾" اهـ

الشرح: [إحاطة علم الله بجميع مخلوقاته]
فالله متصف بصفة العلم: والعلم صفة ذاتية ثابتة لله سبحانه تدل على أنه عليم يعلم كل شيء ظاهرًا وباطنًا، يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، ولا تخفى عليه خافية، فعلمه شامل يحيط بكل شيء، ودائمًا وأبدًا متصف بالعلم ولا يماثل علمه علم المخلوق، فعلم الله كامل يعلم بأقوال العباد وأفعالهم ونياتهم والذي ما قالوه لو أنهم أرادوا قوله لعلم كيف سيقولونه، عالم الغيب -أي ما غاب عن خلقه- والشهادة.

والله حكيم: متصف بصفة الحكمة الكاملة في خلقه وتدبيره وتشريعه وقضائه، حيث يضع كل شيء في موضعه بحكمة ولا يفعل شيئًا عبثا.

وخبير: أي الذي يعلم خفايا الأمور ودقائقها ظاهرًا وباطنًا ولا يخفى عليه شيء محيط بكل التفاصيل.

ورزاق: أي الذي يرزق جميع الخلائق بما يحتاجونه من ماء وطعام وهواء وغير ذلك، فالرزاق صيغة مبالغة من الرزق أي العطاء.

ذو القوة: أي صاحب القوة المطلقة حيث لا يعجزه شيء ولا يغلبه شيء.

المتين: أي شديد القوة فلا يلحقه ضعف ولا نقص في قدرته وتدبيره.

فنثبت أن من أسماء الله سبحانه: العليم، الحكيم، الخبير، الرزاق، ذو القوة، المتين.

فهو متصف بصفة: العلم، والحُكم، والحِكمة، والخَبَر، والخُبْر، والخِبرة، والرَّزق، والقوة، والمتانة.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾" اهـ

الشرح: [إثبات السمع والبصر]

فالله سبحانه متصف بصفة السمع: والسمع صفة ذاتية ثابتة لله سبحانه تدل على أن الله سبحانه سميع يسمع كل شيء سواء كان ظاهرًا أو خفيًا، فالسميع هو الذي يدرك جميع الأصوات، فما من صوت إلا ويسمعه الله عز وجل.

والبصر: صفة ذاتية ثابتة لله سبحانه تدل على أنه بصير يرى كل شيء ظاهرًا وباطنًا صغيرًا وكبيرًا، فالبصير هو المدرك لجميع المبصَرات.

فنثبت لله من الأسماء: السميع والبصير.

فهو متصف بصفة: السمع، والبصر، ودلت الآية كذلك على نفي المثيل له سبحانه.

قال الشيخ رحمه الله تعالى :" وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾" اهـ

الشرح: [إثبات المشيئة والإرادة].

فالمشيئة: تعني القصد والإرادة مع الحرية المطلقة في الاختيار والتنفيذ.

والإرادة: أي القصد والنية مع العزم.

وهي تنقسم إلى قسمين:

* إرادة كونية قدرية: وهي إرادة الله الشاملة التي يقع بها كل ما في الكون سواء كان خيرًا أو شرًا، طاعةً أو معصية، وبالتالي هي ترادف المشيئة (فأراد) تعني (شاء) فإنه لا يقع في الكون إلا ما شاءه الله عز وجل، فهي من هذا الباب أخص من الإرادة والإرادة أعم تشمل هذا القسم والقسم الذي يليه وهو:

* إرادة شرعية دينية: وهي إرادة الله المتعلقة بما يحبه ويرضاه وهي مرتبطة بأوامره ونواهيه، وهي مرادفة للمحبة، (فأراد) تعني (أحب).

والفرق بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية الدينية:

أن الإرادة الشرعية تتعلق بما (يحبه الله عز وجل) لكن (قد يقع وقد لا يقع ما أراد)، وأما الإرادة الكونية تتعلق (بما يقع) وأنه (واقع ولا بد)، سواء كان يحبه الله أو لا يحبه.

فنثبت لله صفة الإرادة والمشيئة. فهي من الصفات الذاتية الفعلية لله سبحانه وتعالى.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ وقَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ﴾ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضوا عَنهُ﴾" اهـ

الشرح: [إثبات صفة المحبة والرضى].

فالمحبة: صفة ذاتية فعلية ثابتة لله سبحانه وتعالى، يحب بها من يشاء من عباده المؤمنين المتقين المتطهرين المقسطين المحسنين وغيرهم ممن اتصف بالصفات الحميدة.

والرضى: صفة ذاتية فعلية ثابتة لله سبحانه وتعالى، يرضى بها عمن يشاء من عباده، والمحبة والرضا صفتان متلازمتان فمن أحبه الله رضي الله عنه ولا يرضى الله إلا عمن أحب.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وقال ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ﴿وهو الغَفُورُ الرَحِيمُ﴾ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾" اهـ

الشرح: إثبات صفة الألوهية والرحمة والمغفرة والحفظ والعلم.

ففي هذه النصوص ثبت لله سبحانه من الأسماء والصفات:

اسم: الله، الرحمن، الرحيم، الغفور، الحافظ، أرحم الراحمين.

ومن الصفات: الألوهية، والرحمة، والمغفرة، والحفظ.

وقد سبق بيان الكلام عن اسم الله، أما الرحمن والرحيم فكلاهما اسمان من أسماء الله تعالى يدلان على اتصاف الله بالرحمة، وكذلك أرحم الراحمين فهي صيغة مبالغة تدل على بلوغ الله الغاية والكمال في الرحمة.

فالرحمن: يدل على سعة رحمة الله سبحانه.

والرحيم: يدل على إيصالها لخلقه، فنقول: الرحمن ذو الرحمة الواسعة، والرحيم ذو الرحمة الواصلة فهو اسم يدل على الفعل.

والغفور: أي الذي يكثر منه الستر على المذنبين والتجاوز عنهم، مأخوذ من الغفر وهو الستر.

والحافظ: هو اسم من أسماء الله الحسنى يدل على كماله في حفظ كل شيء، بعلمه وقدرته، فالحفظ من الرعاية والصون، فالله يحفظ الكون من التغير والفناء، ويحفظ الأعمال أي يسجلها عليهم

ليجازيهم بها يوم القيامة، ويحفظ المؤمنين من الشرور والفتن، وحفظ الوحي من التحريف والتغير والضياع.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾" اهـ

الشرح: [ثبوت اتصاف الله بالغضب والسَخَط والانتقام والكراهية والمقت -وهو أشد البغض-]
وهذه من الصفات الذاتية الفعلية المتعلقة بفعله، ولا يتسمى بهذه الصفات يعني لا يقال أن من أسماء الله الغاضب والساخط والمنتقم والكاره والمبغض، لكنه يتصف بهذه الصفات وهي صفات كمال تليق بالله سبحانه وتعالى ليست كصفات المخلوقين
وقوله: آسفونا: أي أغضبونا.
والانتقام شدة الكراهة والسخط الذي يترتب عليه المجازاة بالعقوبة.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾" اهـ

الشرح: إثبات صفة المجيء والإتيان لله سبحانه وتعالى، وهما من الصفات الذاتية الفعلية، بمعنى أنها متعلقة بفعله ومشيئته وهي من الصفات التي تليق بالله سبحانه ولا تماثل صفة المخلوق في الإتيان والمجيء، فالصفتان تؤخذان على ظاهرهما وحقيقتهما دون تحريف ولا تمثيل، ولا تحرفان بأن معناهما إتيان أمره أو عذابه بل الله سبحانه وتعالى يأتي بنفسه لفصل القضاء بين عباده يوم القيامة ويجيء إليهم.

وقول الله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾، ليست صريحة في إثبات الإتيان والمجيء لكنها تدل عليهما من باب التلازم، بمعنى أن الله عز وجل قبل أن يأتي ويجيء يوم القيام تنشق السماء وتنزل الملائكة، ثم يأتي الله سبحانه وتعالى لفصل القضاء، فهي دالة على صفة الإتيان من باب اللازم.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾" اهـ

الشرح: إثبات الوجه لله سبحانه، فهو وجه حقيقي يليق بذات الله سبحانه وتعالى، والوجه صفة ذاتية ثابتة له جل وعلا، وليس معنى الوجه هنا بمعنى الجهة، أو الذات أو الثواب، وليس في إثبات الوجه لله سبحانه واليدين والعينين يلزم منه أن تكون مماثلة لصفات المخلوقات كما يذهب إلى ذلك المجسمة الممثلة، ولا يلزم من ذلك وجود تركيب وأعضاء وأجزاء وأبعاض؛ لأنه كما سبق أن الله لا يقاس بخلقه ولا يلزم بلوازم المخلوق فهذه وغيرها من الصفات تثبت على ظاهرها وحقيقتها مع اعتقاد تنزيه الله تعالى المطلق من أن يماثل خلق من خلقه لأنه لا سمي له ولا كفء له ولا ند له.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾" اهـ

الشرح: هاتان الآيتان فيهما إثبات صفة اليدين لله سبحانه، وقد ذكر الشيخ ابن تيمية رحمه الله الآية التي فيها ذكر اليد مثناة، بالرغم من أنه وردت اليد مفردة ووردت جمعًا.
مفردة كقوله سبحانه ﴿فَسُبحانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكوتُ كُلِّ شَيءٍ وَإِلَيهِ تُرجَعونَ﴾ [يس: ٨٣]
﴿تَبارَكَ الَّذي بِيَدِهِ المُلكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ﴾ [الملك: ١]
﴿إِنَّ الَّذينَ يُبايِعونَكَ إِنَّما يُبايِعونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوقَ أَيديهِم...﴾ [الفتح: ١٠]

وجمعًا كقوله ﴿أَوَلَم يَرَوا أَنّا خَلَقنا لَهُم مِمّا عَمِلَت أَيدينا أَنعامًا فَهُم لَها مالِكونَ﴾ [يس: ٧١]

فالإفراد: يريد بها جنس اليد أي أن الله متصف بصفة اليد.
والتثنية: يراد بها حقيقة العدد؛ لأن المثنى إذا أطلق في السياق فلا يراد منه إلا حقيقة العدد وهو الاثنين، وفي هذه الآيات التثنية مطلقة إذن هي تدل على أن لله يدين على حقيقة معنى التثنية.
والجمع: لا ينفي التثنية، فالله مثلًا قال ﴿إِن تَتوبا إِلَى اللَّهِ فَقَد صَغَت قُلوبُكُما..﴾ [التحريم: ٤]
فجائز في اللغة أن يجمع المثنى إذا أضيف إلى ضمير جمع، فعائشة لها قلب، وحفصة لها قلب، والمجموع قلبان ومع ذلك جاء القلب بالجمع.
وممكن أن يقال: أن الجمع بقوله أيدينا: يراد به التعظيم كقوله {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} فنحن صيغة جمع لكنها هنا تدل على التعظيم لأن الحافظ هو الله وحده.

أو يقال: أن أقل الجمع اثنان وهذا سائغ في اللغة، ومهما كان فالجمع لا يلزم منه نفي التثنية، فالتثنية هي الأصل.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾" اهـ

الشرح: [ثبوت العينين لله سبحانه].
العين صفة ذاتية ثابتة لله سبحانه وتعالى كما هو واضح من النصوص السابقة وغيرها فنثبت لله عين يرى بها جميع المرئيات وهي صفة حقيقية على ظاهرها على ما يليق بالله سبحانه، وقد جاءت في الآيتين الأوليين العين بصيغة الجمع، وفي الآية الثالثة بصيغة المفرد، ولم يرد في النصوص – الكتاب والسنة الصحيحة- التصريح بتثنية العينين، لكن ورد في الحديث الصحيح عن صفة الدجال بأنه أعور والله ليس بأعور، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما مِن نَبِيٍّ إلَّا وقدْ أنْذَرَ أُمَّتَهُ الأعْوَرَ الكَذّابَ، ألا إنَّه أعْوَرُ، وإنَّ رَبَّكُمْ ليسَ بأَعْوَرَ، ومَكْتُوبٌ بيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر» [البخاري (ح٧١٣١) ومسلم (ح٢٩٣٣)]

فيفهم من الحديث: أن الله متصف بعينين لأن نفي العور لا يكون إلا لمن له عينين، فحينما يأتي الدجال الذي من علاماته التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم لنا عنه لنحذره هو أنه أعور العين اليمنى، إذن هو لديه عينين إحداهما عوراء، والعور لا يكون إلا لمن له عينين فالذي عنده أعين كثيرة أو عين واحدة لا يقال عنه أعور، فكلمة العور تطلق على من له عينين إحداهما تالفة.

ومعنى الآيات: أن الله متصف بصفة العين، وأن ظاهر معناها: أنهم بعناية الله يرعاهم ويكلؤهم.
فالسفينة تجري وعين الله ترعاها وتكلؤها، وموسى عليه الصلاة والسلام تربى على مرأى من الله يعني يرعاه ويكلؤه، وليس معنى ظاهر الآيات أن السفينة تجرى داخل عين الله! ولا أن موسى عليه الصلاة والسلام صنع فوق عين الله! فمن زعم أن هذا هو الظاهر فهو جاهل بكلام العرب.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾" اهـ

الشرح: [إثبات صفة السمع والبصر والرؤية]

السمع: قد سبق ذكر هذه الصفة وأنها صفة حقيقية ثابتة لله سبحانه وتعالى يسمع بها الأصوات مهما بعدت ومهما خفيت فالسمع هنا إدراك المسموعات.

والبصر صفة ذاتية حقيقة ثابتة لله سبحانه وتعالى يدرك بها المبصَرات كالأشخاص والألوان، والرؤية لازمة للبصر ، فالله يسمع عباده ويراهم ويبصرهم.

فسمع الله متعلق بكل مسموع، ورؤية الله متعلقة بكل مرئي.

فهذه من الصفات الثابتة تثبت لله على أنها صفات ذاتية تليق بالله سبحانه وتعالى لا تماثل صفات المخلوقات وهي من صفات الكمال، فالذي لا يسمع ولا يبصر ناقص ولا يستحق العبادة وقد استدل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على بطلان عبادة الأصنام بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تضر شيئا فهي من صفات النقص ﴿إِذ قالَ لِأَبيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعبُدُ ما لا يَسمَعُ وَلا يُبصِرُ وَلا يُغني عَنكَ شَيئًا﴾ [مريم: ٤٢]

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾"اهـ

الشرح: في هذه النصوص إثبات صفات [المكر والكيد والمِحال]

- شديد المِحال: المحال في اللغة بمعنى القوة والشدة أو الحيلة التي يحتال بها لتحقيق غرض.

فالله سبحانه شديد المحال: أي شديد في قوته وحيلته والأخذ بالعقوبة.

- والمكر: في اللغة بمعنى التدبير الخفي لإحباط فعل أو إيصال ضرر بطريقة غير مباشرة، لكن في حق الله فالمعنى: التدبير الخفي الحكيم لإحباط مكر الأعداء، فالله يحبط مكر الكافرين ويدبر الأمور بحكمته لإفشال خططهم وهو خير من يدبر الأمور.

-والكيد: في اللغة بمعنى التخطيط والتدبير لإيصال ضرر أو قهر عدو بطريقة محكمة.

فالله سبحانه: يُخطط التخطيط المحكم لقهر أعداءه وإفشال مكائدهم.

فهذه صفات ذاتية فعلية تثبت لله سبحانه وتعالى على حقيقتها وظاهر معناها لكنها مقيدة على سبيل المقابلة، فلا يطلق فيقال الله الماكر والكائد، بل يقيد فيقال: يمكر بالماكرين، خير الماكرين، يكيد بالكائدين.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾" اهـ

الشرح: وصف الله بالعفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة.
فالعفو: في اللغة بمعنى المحو والإزالة، ويأتي بمعنى الفضل {ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو..} أي ما زاد عن الحاجة، وهو اسم من أسماء الله الحسنى يدل على أن الله تعالى يتجاوز عن ذنوب عباده ويمحو سيئاتهم.
والقدير: في اللغة مشتق من القَدْر أي القدرة والإحكام.
-فالقدير: اسم من أسماء الله الحسنى يدل على قدرة الله التامة على كل شيء ولا يعجزه شيء ولا يحتاج إلى غيره فله القدرة المطلقة فهو الذي يحيي ويميت، ويرزق ويدبر الأمور.
-والعزة: في اللغة من المنعة والقوة والغلبة وتستعمل بمعنى الرفعة والشرف، فهي صفة من صفات الله تعالى تدل على كمال قوته واستغنائه، ومن أسمائه العزيز الذي تضمن صفة العزة.
فبالعفو تظهر سعة رحمته وبالقدرة تظهر قدرته على كل شيء ولا يعجزه شيئ وبالعزة تظهر منعه وقوته وغلبته ورفعته على كل شيء، وعزة عباده المؤمنين مستمدة من عزته.
-والمغفرة: تعني ستر الله لذنوب عباده ومحوها مع التجاور عن عقوبتها.
-والرحمة: أعم وأوسع من المغفرة فهي تشمل الإحسان على الخلق مؤمنهم وكافرهم، وأما المغفرة فهي خاصة بعباده المؤمنين، والقول فيها كالقول في الرحمن والرحيم.

فمن أسماء الله تعالى: العفو، القدير، العزيز، الغفور الرحيم
ومتصف بصفات: العفو والقدرة والعزة والمغفرة والرحمة.
وهي صفات ذاتية فعلية ثابتة لله سبحانه وتعالى.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾" اهـ

الشرح: هذه الآية فيها إثبات التبارك لله تعالى وهي صفة ذاتية ثابتة لله عز وجل: تبارك اسمُ ربك، تبارك الذي نزلّ الفرقان على عبده..، تبارك الذي بيده الملك...

فهي صفة إلهية تدل على أن الله هو مصدر كل خير وبركة وأن بركته دائمة وشاملة، فالله هو الذي يبارك الشيء فتحل البركة على ذلك الشيء.

وفيها إثبات اسم وصفة الجلال والإكرام:

فالجلال بمعنى العظمة فالله عظيم في غاية العظمة، فهو متصف بالجلال الذي يعني التنزيه عن كل نقص.

والإكرام: يدل على سعة كرم الله سبحانه فهو الذي يُكرّم- أي يُنزّه عن النقص- ويُكرِم عباده بالنعم ويديهما عليهم. فهي من الصفات التي تدل على عظمة الله سبحانه غاية العظمة وكرمه غاية الكرم.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ..﴾ ﴿وَقُلِ الحَمدُ لِلَّهِ الَّذي لَم يَتَّخِذ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَهُ شَريكٌ فِي المُلكِ وَلَم يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرهُ تَكبيرًا﴾ وقوله ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرضِ لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ﴾ وقوله ﴿تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقانَ عَلى عَبدِهِ لِيَكونَ لِلعالَمينَ نَذيرًا ۝ الَّذي لَهُ مُلكُ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَلَم يَتَّخِذ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَهُ شَريكٌ فِي المُلكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقديرًا﴾ وقوله ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِن إِلهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعضُهُم عَلى بَعضٍ سُبحانَ اللَّهِ عَمّا يَصِفونَ ۝ عالِمِ الغَيبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعالى عَمّا يُشرِكونَ﴾ وقوله ﴿فَلا تَضرِبوا لِلَّهِ الأَمثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعلَمُ وَأَنتُم لا تَعلَمونَ﴾ وقوله ﴿قُل إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وَما بَطَنَ وَالإِثمَ وَالبَغيَ بِغَيرِ الحَقِّ وَأَن تُشرِكوا بِاللَّهِ ما لَم يُنَزِّل بِهِ سُلطانًا وَأَن تَقولوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعلَمونَ﴾"اهـ

الشرح: هذه الآيات في ذكر آيات صفات النفي، فذكر منها: نفي السمي، والكفء والند، وتسوية الله بالمحبة، ونفي الولد والشريك والولي وإله آخر، ونفي المثيل.

والمتقرر في قواعد أهل السنة والجماعة أنهم يفصلون في الإثبات، ويجملون في النفي.

والمعنى: أن صفات الكمال محلها التفصيل فكلما فصلّت في صفات الكمال دل على كثرة المدح، والله سبحانه يحب المدح.

أما صفات النقص فإنها تذكر مجملة ولا تُفصّل؛ لأن التفصيل فيها يعتبر نوع من التنقص بحق القائل. فلو أنك دخلت على شخص معظم كملك أو وزير ثم قمت بذكر صفات نقص تنفيها عنه فهذه تعتبر إهانة ويعاقبك عليها، لكن لو أنك ذكرت محاسنه وصفاته والصفات الحسنة لسره ذلك.
فمن باب أولى أن الله سبحانه يوصف بصفات الكمال بالتفصيل لأنه يحب المدح، ولا تذكر الصفات المنفية إلا بالإجمال دون تفصيل، وهذا هو الجاري في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فالناظر فيهما يجد أن صفات الكمال تأتي مفصلة وصفات النفي يأتي نفيها مجملًا.

وهذه الآيات المذكورات تعتبر من الصفات المنفية ويقال الصفات السلبية، فهي مذكورة على طريقة النفي المفصل، والنفي المحض لا يعتبر كمال إلا بإثبات ضدها من صفات الكمال.
-فنفي السمي يلزم منه إثبات كمال ضده وهو: تفرده، فلا شبيه له ولا نظير.
-ونفي الكفء يلزم منه إثبات كمال ضده وهو: أنه لا يوجد من يُساوي الله أو يُماثله في صفاته، سواء في العلم، القدرة، الحياة، أو غيرها؛ فالله متفرد بصفات الكمال المطلق، فلا يوجد له نظير أو مثيل.

-ونفي الند يلزم منه إثبات كمال ضده وهو: أنه لا يوجد من يُنازع الله في سلطانه أو يُساويه في عظمته وقدرته؛ فالله متفرد بالألوهية والربوبية، فلا شريك له ولا معارض.
-ونفي تسوية الله بالمحبة يلزم منه إثبات كمال ضده: وهو تفرد الله سبحانه بالمحبة فلا يحب الله كحب المخلوقين، ولا يحب أقل من المخلوقين، بل يكون الله في أعلى درجات المحبة لا يساويه في ذلك أحد، فالمؤمن حقًا هو الذي يحب الله أشد المحبة ويقدم محبة الله على من هو دونه كما قال في تمام الآية ﴿وَالَّذِينَ آمَنوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، إذن هذه الآية فيها نفي تسوية الله عز وجل بالمحبة فإن ذلك نقص في حقه سبحانه فنفاه عنه.

-ونفي الولد عنه يلزم إثبات كمال ضده: وهو كمال صفاته وكمال غناه، فالذي عنده ولد فهذا لنقصه ولحاجته للولد ليساعده ويعينه، وتعالى الله عز وجل أن يحتاج لمن يساعده ويعينه فإن هذا نقص بحق الخالق سبحانه.

-ونفي الشريك يلزم منه إثبات كمال ضده: وهو أن الله سبحانه متفرد بربوبيته وألوهيته وما له من الأسماء والصفات، فلا يوجد من يشاركه في شيء من ذلك فله التفرد وحده والسيادة الكاملة والعظمة المطلقة، لا شريك لله سبحانه في ملكه ولا في خلقه ولا صفاته.
-ونفي الولي يلزم منه إثبات كمال ضده: فالولي هو المناصر والحليف والمعين، فنفي الله عز وجل أن

يكون له ولي (من الذل) يعني أن الله سبحانه وتعالى ليس بذليل ضعيف ليحتاج من يناصره، فالله هو الغني الحميد ليس بحاجة لأحد من خلقه فله الغنى الكامل المطلق، وهو القوي العظيم الجبار خالق كل شيء قادر على كل شيء، فنفي الولي هنا مقيد بقوله من الذل.

ونفي وجود إله آخر يلزم منه إثبات كمال ضده: وهو تفرده سبحانه بالألوهية، فإنه الإله هو المعبود، ولا معبود يستحق العبادة إلا الله سبحانه وتعالى؛ فهو الخالق المالك المدبر وهذه صفات الإله، ولا يوجد من يشارك الله في صفة الخلق والملك والتدبير فدل هذا على تفرده بالربوبية والألوهية،

وإثبات الألوهية يقتضي المساواة في القوة لذا ذكر الله سبحانه وتعالى ما يسمى عند أهل العلم بدليل التمانع وهو قوله: {إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعضُهُم عَلى بَعضٍ..}، فيمتنع وجود إله آخر لأن وجود ألهة أخرى معنى ذلك أن لكل إله خلق وفعل، فلو كان كذلك لحصل تعارض بين كل إله فالاختلاف بينهم واقع ضرورة لا محالة وبالتالي يحصل الفساد لتمسك كل إله برأيه وخلقه وفعله، وإن غلب أحدهم الآخر دل هذا على عجز الآخر، وعجز الآخر يدل على عدم استحقاقه للألوهية فالإله لا يكون عاجزًا، فنزه الله نفسه عما يصفه به الواصفون من نسبة الولد والشريك.

-ونفي ضرب الأمثال لله: معناه أن لا تجعلوا لله مثلًا فتقولون الله مثل كذا وكذا، فالآية فيها نفي إن يمثلوا الله بخلقه، فتمثيل الله بخلقه نقص بحقه، فنفي المثيل يلزم منه إثبات كمال ضده وهو وحدانيته سبحانه وأنه لا مثيل له.

وتسبيح الله: أي تنزيه الله عن كل نقص وعيب فالله منزه عن كل نقص وكل عيب فهي آية تعتبر من النفي المجمل فكل نقص وعيب فالله منزه أن يتصف به.

وحمد الله: إثبات كمال الله فهو الكامل في كل شيء بلغ الغاية منها، فله الحمد أي الثناء والمدح مع المحبة والتعظيم المتضمن الإقرار بوحدانية الله سبحانه وتفرده بالكمال المطلق سواء في ذاته أو صفاته أو أفعاله، فالآيات التي فيها ذكر الحمد تدل على إثبات صفات الكمال لله تعالى.

وختم المصنف ذكر الآيات المتعلقة بنصوص صفات النفي بقول الله تعالى ﴿قُل إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وَما بَطَنَ وَالإِثمَ وَالبَغيَ بِغَيرِ الحَقِّ وَأَن تُشرِكوا بِاللَّهِ ما لَم يُنَزِّل بِهِ سُلطانًا وَأَن تَقولوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعلَمونَ﴾، ذلك أن القول في صفات الله تعالى إثباتًا ونفيًا من غير استدلال بالكتاب ولا السنة يدخل في القول على الله بلا علم وهذا من الأمور المحرمة بل من كبائر الذنوب، فلا يجوز الكلام في صفات الله من غير بينة ولا برهان.

وكذلك النهي عن اتخاذ شريك مع الله فهذا نفي وزيادة.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وقوله ﴿الرَّحمنُ عَلَى العَرشِ استَوى﴾، ﴿ثُمَّ استَوى عَلَى العَرشِ﴾ في ستة مواضع.
وَقَوْلُهُ: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، وقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، وقوله تعالى ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، وقوله ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾" اهـ

الشرح: فيها إثبات الاستواء وعلو الله على خلقه بذاته.
والاستواء بمعنى العلو والارتفاع قال مجاهد: ﴿استوى﴾ علا ﴿على العرش﴾ [ذكره البخاري تعليقا في صحيحه في كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء].
ولا يعرف في كلام العرب أن الاستواء إذا عُدّيَ بعلى إلا بمعنى العلو والارتفاع، وقد ذكر الإمام ستة أدلة من القرآن صريحة في علو الله سبحانه فوق خلقه واستواءه على عرشه.
وقوله [في ستة مواضع] يعني قوله سبحانه ﴿ثُمَّ استَوى عَلَى العَرشِ﴾ وردت بهذا اللفظ في ستة مواضع وهي:
(١) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ استَوى عَلَى العَرشِ يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ يَطلُبُهُ حَثيثًا وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمرِهِ أَلا لَهُ الخَلقُ وَالأَمرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ العالَمينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]
(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ استَوى عَلَى العَرشِ يُدَبِّرُ الأَمرَ ما مِن شَفيعٍ إِلّا مِن بَعدِ إِذنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَاعبُدوهُ أَفَلا تَذَكَّرونَ﴾ [يونس: ٣]
(٣) ﴿اللَّهُ الَّذي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَونَها ثُمَّ استَوى عَلَى العَرشِ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجري لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُم بِلِقاءِ رَبِّكُم توقِنونَ﴾ [الرعد: ٢]
(٤) ﴿الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ وَما بَينَهُما في سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ استَوى عَلَى العَرشِ الرَّحمنُ فَاسأَل بِهِ خَبيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]
(٥) ﴿اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ وَما بَينَهُما في سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ استَوى عَلَى العَرشِ ما لَكُم مِن دونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرونَ﴾ [السجدة: ٤]
(٦) ﴿هُوَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ استَوى عَلَى العَرشِ يَعلَمُ ما يَلِجُ فِي الأَرضِ وَما يَخرُجُ مِنها وَما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعرُجُ فيها وَهُوَ مَعَكُم أَينَ ما كُنتُم وَاللَّهُ بِما تَعمَلونَ بَصيرٌ﴾ [الحديد: ٤]

وفي موضع واحد بلفظ ﴿عَلَى العَرشِ استَوى﴾ ذكرت في سورة طه (٥).
فمجموع ذكر الاستواء على العرش في سبعة مواضع، ولم يُذكَر في موضع من المواضع لفظة الاستيلاء بدلًا من الاستواء كما يزعم المعطلة المحرفة الذين يزعمون أن معنى استوى أي استولى وغلب! فلماذا لم يذكر في موضع واحد فقط استولى بدلًا من استوى! والله أصدق قيلًا وأحسن حديثا!؟

فأهل السنة يعتقدون أن الاستواء من صفات الله تعالى الثابتة في حقه وهي من الصفات الذاتية الفعلية والله مستو على عرشه من غير حاجة لعرشه ولا لخلق من خلقه كما أنه غير محتاج لعبادة عباده فهو الغني، وليس بمحتاج لملائكته في تصريف وتدبير أوامره فهو إن أراد شيئًا قال له كن فيكون.

ويعتقد أهل السنة أن الله متصف بصفة العلو فهي من صفاته الذاتية الثابتة في حقه بدلالة الآيات السابقة وغيرها وكذلك الأحاديث النبوية الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والفرق بين العلو والاستواء: أن الاستواء صفة فعلية اختيارية راجعة إلى مشيئة الله وإرادته، وأما صفة العلو فهي صفة ملازمة لذاته لا تنفك عنه فهو دائمًا في علو، فالله متصف بصفة علو الذات، وعلو القهر، وعلو القدر، وعلو الصفات، وهذا هو الذي يقال عنه العلو المطلق، والمخلوق يكون له شيء من العلو لكنه علو مقيد، كالملك فهو عال القدر والقهر على رعيته وهذا مقيد، وقد يكون من بين رعيته من هو عال بصفاته وشرف نسبه، فهذا علو مقيد، أما الله سبحانه فله العلو المطلق أي في ذاته وصفاته وقهره وقدره.

-الاستواء: هو علو الله تعالى وارتفاعه فوق عرشه والعرش هو سرير الملك.

-علو الذات: بمعنى أن الله عال بذاته فوق جميع مخلوقاته فهو فوق كل شيء ولا شيء فوقه، محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء، مستو على عرشه.

-علو القهر: القهر بمعنى الغلبة والإخضاع فالله أخضع كل شيء وجعله تحت سيطرته الكاملة فهو المتفرد بالسلطان والقوة وكل ما في الكون تحت قهره لذا قال {وهو القاهر فوق عباده} ومثال ذلك: أن له الخلق والتدبير، والقضاء والقدر والهيمنة على الكون، فلا يخرج شيء من كونه خلق من مخلوقاته ومدبر بتدبيره، وبقضائه وقدره، وهيمنة الله سبحانه عليه.

- علو القدر: بمعنى علو مكانته ومنزلته فهو العظيم الذي لا يدانيه شيء في عظمته وجلاله فهو متفرد بالجلال والعظمة والعزة والكمال فلا يوجد من يماثله ويساويه في ذلك.

-علو الصفات: أي أن الله سبحانه وتعالى متفرد بصفات الكمال المطلق التي لا يماثلها شيء من صفات مخلوقاته فكل صفة من الصفات الثابتة لله سبحانه فهي تُثبت لله تعالى على وجه الكمال والتفرد والجلال والعظمة.

*ووجه الدلالة من الآيتين: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، الضمير راجع إلى الله سبحانه، فالله رفع -والرفع لا يكون إلا لأعلى- عيسى عليه الصلاة والسلام ونجاه من كيد الذين أرادوا قتله، وحرف [إليَّ] تفيد الغاية ففيه دلالة على أن المرفوع إليه كان عاليًا.

*ووجه الدلالة من الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، الضمير يرجع إلى الله تعالى كذلك، والصعود يكون لأعلى فالكلم الطيب يصعد إلى الله سبحانه فهذا يدل على أن الله تعالى في العلو.

*ووجه الدلالة من الآية: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، أن فرعون سخر من موسى عليه الصلاة والسلام وطلب من هامان أن يبني له صرحًا شاهقًا يصعد به إلى السماء فيفتح أبواب السماء من أجل أن ينظر إلى إله موسى عليه السلام، وهذا يدل على أن موسى عليه الصلاة والسلام أخبر فرعون بأن الله سبحانه هو خالق السماوات والأرض وهو فوقنا فرد عليه فرعون بهذا الرد وإلا فلماذا ذكر فرعون هذا لو لم يخبره موسى عليه الصلاة والسلام بعلو الله تعالى، ومن العجيب أن معطلة العلو يستدلون بهذه الآية على نفي علو الله سبحانه! لذا قال من قال من أهل العلم أن معطلة العلو سلفهم فرعون لعنه الله.

*ووجه الدلالة من الآية: وقوله ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾، أن الذي في السماء هو الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يأمر الأرض بأن تضطرب وتموج بهم فيُهلكوا، وأن يأمر بالريح التي تحمل الحصباء فتُهلكهم.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقوله ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وقوله ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وقوله ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾" اهـ

الشرح: هذه الآيات تُثبت معية الله تعالى لخلقه، وذُكرت بعد الحديث عن العلو والاستواء لدفع توهم وجود التناقض بين علو الله تعالى فوق خلقه ومعيته معهم، والمعية عند أهل السنة والجماعة تنقسم إلى نوعين:

١- المعية العامة: وهي أن الله عز وجل مع جميع خلقه، المؤمن والكافر، أي أنه محيط بهم بعلمه وبسمعه وبصره وقدرته وقهره وسلطانه، ومع ذلك هو سبحانه بذاته فوق خلقه، فلا يُفهم من معية الله مع خلقه أنه مختلط بهم تعالى الله وتقدس عن ذلك، وعليه فالنصوص التي فيها ذكر المعية بسياق عام فهي دالة على المعية العامة ومثال ذلك الآيتين الأوليين.

٢- المعية الخاصة: وهي خاصة بأولياء الله وأهل طاعته، وتكون بمعنى النصرة والمعونة والحفظ والتوفيق والرحمة، فهي زيادة على المعية العامة، فالنصوص التي فيها المعية وذُكِر فيها أهل الطاعة كالأنبياء والرسل والصالحين فهي المعية الخاصة، ومثال ذلك بقية الآيات الخمس.

والمعية من صفات الله تعالى الثابتة له بدلالة النصوص التي ذكرها الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وينبغي أن يُعلم أن المعية باعتبارها صفة تنقسم إلى قسمين:

*معية ذاتية: وهي المعية العامة التي تشمل جميع الخلق كما سبق.

*معية ذاتية فعلية: وهي المعية الخاصة المتعلقة بمشيئته وإرادته، فمتى وجد أهل طاعته وتقواه كان معهم بالمعية الخاصة ومتى تخلفت الطاعة والتقوى لم يكن معهم بمعيته الخاصة.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، وقوله ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾، وقوله ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ﴿مِنهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعضَهُم دَرَجاتٍ﴾، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾، ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿وَناداهُما رَبُّهُما أَلَم أَنهَكُما عَن تِلكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَكُما إِنَّ الشَّيطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبينٌ﴾ وقوله تعالى﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾، وقوله ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾، وقوله ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، وقوله ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ(١٠٣)﴾" اهـ

الشرح: هذه النصوص في إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى وأن القرآن كلامه، وأنه منزّل من الله سبحانه، وقد تنوعت الدلالات القرآنية في إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، فالله متصف بصفة الكلام، والكلام من صفاته الذاتية الفعلية، وهو يتكلم متى شاء بما شاء كيف شاء.

فالحديث والقول والكلام والمناداة كلها تدل على صفة الكلام، والكلام لا يكون كلامًا إلا إن كان ملفوظًا، فالإشارة لا تسمى كلامًا والكتابة لا تسمى كلامًا فالكلام هو ما كان ملفوظًا.

فالآيات التي فيها ذكر القول، الحديث، المناداة، الكلام، كلها تدل على أن الله تعالى يتكلم بكلام حقيقي ويكون بحرف وصوت يُسمع، فهذه النصوص فيها رد على المعتزلة والأشعرية وغيرهم من المعطلة الذين ينفون كلام الله سبحانه وتعالى.

وهذا القرآن الكريم من بعض كلام الله سبحانه الذي تكلم به فكلام الله تعالى لا ينفد كما قال الله عز وجل ﴿قُل لَو كانَ البَحرُ مِدادًا لِكَلِماتِ رَبّي لَنَفِدَ البَحرُ قَبلَ أَن تَنفَدَ كَلِماتُ رَبّي وَلَو جِئنا بِمِثلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، لذا يقول أهل السنة والجماعة في تعريف القرآن الكريم: هو كلام الله، منزّل غير مخلوق، سمعه منه جبريل وبلغه إلى محمد صلى الله عليه وسلم، منه بدا – أي الله- وإليه يعود، وسيأتي تفصيل هذه المسألة في موضعها من هذا الكتاب.

والخلاصة: أن الله سبحانه وتعالى من صفاته الكلام، والكلام لا يكون إلا بصوت مسموع.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾، وقوله ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، وقوله ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ." اهـ

الشرح: هذه النصوص في إثبات صفة التجلي لله سبحانه وتعالى، والتجلي أي الظهور والبيان، وساقها المصنف لبيان هذه الصفة وهي صفة التجلي وليس لصفة رؤية المؤمنين لربهم، فإن رؤية المؤمنين لربهم إنما هذه صفة لرؤيتهم، أما السياق الذي ساقه المصنف في بداية كلامه عن الصفات فهو سياق الكلام عن صفات الله تعالى، لكن هذه الآيات الأربع تدل من باب التلازم أن المؤمنين يرون الله سبحانه، فهم لا يستطيعون رؤيته إلا بعد أن يتجلى لهم فحينها يرونه.

والنظر إذا عُدّيَ بإلى فهو يدل على النظر بالأبصار، قال أبو محمد مكي بن أبي طالب رحمه الله تعالى في كتابه [مُشكل إعراب القرآن (ص٧٧٨)]:" قَوْله ﴿وُجُوه يَوْمئِذٍ ناضرة﴾ وُجُوه ابْتِدَاء وناضرة نعت لَهَا و﴿إِلَى رَبهَا ناظرة﴾ خبر الِابْتِدَاء وَيجوز أَن تكون ناضرة خَبرًا، و﴿إِلَى رَبهَا ناظرة﴾ خبر ثَان، وَيجوز أَن تكون ناظرة نعتًا لناضرة أَو لوجوه، وناضرة خبر عَن الْوُجُوه.

وَدخُول (إِلَى) مَعَ النّظر يدل على أَنه نظر الْعين، وَلَيْسَ من الِانْتِظَار؛ وَلَو كَانَ من الِانْتِظَار لم تدخل مَعَه (إِلَى) أَلا ترى أَنَّك لَا تَقول انتظرت إِلَى زيد، وَتقول نظرت إِلَى زيد، فـ (إِلَى) تصْحَب نظر الْعين وَلَا تصْحَب نظر الِانْتِظَار، فَمن قَالَ: أَن ناظرة بِمَعْنى منتظرة فقد أَخطَأ فِي الْمَعْنى وَفِي الإعراب وَوَضع الْكَلَام فِي غير مَوْضِعه" اهـ

وجاء في لسان العرب:" وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّهَا ناظِرَةٌ؛ الأُولى بِالضَّادِ والأُخرى بالظاءِ؛ قَالَ أَبو إِسحق: يَقُولُ نَضِرَت بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ والنَّظَرِ إِلى رَبِّهَا. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ؛ قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ: وَمَنْ قَالَ إِن مَعْنَى قَوْلِهِ إِلى رَبِّهَا ناظِرَةٌ يَعْنِي مُنْتَظِرَةً فَقَدْ أَخطأَ، لأَن الْعَرَبَ لَا تَقُولُ نَظَرْتُ إِلى الشَّيْءِ بِمَعْنَى انْتَظَرْتُهُ، إِنما تَقُولُ نَظَرْتُ فُلَانًا أَي انْتَظَرْتُهُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الْحُطَيْئَةِ:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمُ أَبْناءَ صَادِرَةٍ ... لِلْوِرْدِ، طَالَ بِهَا حَوْزِي وتَنْسَاسِي

وإِذا قُلْتَ نَظَرْتُ إِليه لَمْ يَكُنْ إِلا بِالْعَيْنِ، وإِذا قُلْتَ نَظَرْتُ فِي الأَمر احْتَمَلَ أَن يَكُونَ تَفَكُّرًا فِيهِ وَتَدَبُّرًا بِالْقَلْبِ." اهـ [لسان العرب (٥/ ٢١٦- ٢١٧)]

فقوله في الآية الأولى: إلى ربها ناظرة، أي وجوه أهل النعيم تنظر إلى الله سبحانه وتعالى بأبصارها حينما يتجلى الله لهم أي يظهر لهم.

والآية الثانية: في وصف حال المؤمنين أنهم على الأرائك ينظرون إلى النعيم الذي أعد لهم ومن أعظم النعيم النظر إلى الله سبحانه وتعالى حينما يتجلى لهم.

والآية الثالثة: الزيادة فُسرّت بأنها رؤية الله تعالى فالحسنى الجنة والزيادة رؤية الله سبحانه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا دَخَلَ أهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قالَ: يقولُ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: تُرِيدُونَ شيئًا أزِيدُكُمْ؟ فيَقولونَ: ألَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ ألَمْ تُدْخِلْنا الجَنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟ قالَ: فَيَكْشِفُ الحِجابَ، فَما أُعْطُوا شيئًا أحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ عزَّ وجلَّ.

وفي رواية: وزادَ ثُمَّ تَلا هذِه الآيَةَ: {لِلَّذِينَ أحْسَنُوا الحُسْنَى وزِيادَةٌ}» [صحيح مسلم (ح١٨١)] من رواية صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه.

والآية الرابعة: الشاهد منها (ولدينا مزيد) والقول فيها كالقول في الآية الثانية، فالزيادة على هذا النعيم هو رؤية الله سبحانه وتعالى.

وقول الشيخ رحمه الله تعالى:" وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ" اهـ

في هذا الباب: أي باب الأسماء والصفات، فالنصوص كثيرة جدًا تدل على ما لله سبحانه من الأسماء الحسنى والصفات العلى التي ينبغي أن تثبت له على وجه الكمال والتفرد، ونفي النقائص عنه.

فمن تفكر في آيات الله عز وجل رغبة للرشاد وطلبًا للهدى بهذه النية مخلصًا لله سبحانه وتعالى حينها اتضح له الطريق المستقيم والاعتقاد الصحيح في أسماء الله وصفاته على خلاف ما عليه أهل الأهواء من المعطلة والممثلة، وسواء كان ذلك في باب الأسماء والصفات أو غيره، فصلاح النية يؤدي إلى سلوك الطريق الصحيح بإذن الله سبحانه.

ثم انتقل الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى لبيان بعض الأدلة في إثبات الإسماء والصفات من السنة النبوية وذكر ستة عشر حديثًا من باب التمثيل لا الحصر وإلا فثبوت الأسماء والصفات لله عز وجل من طريقة السنة النبوية كثيرة جدًا، فقال:

"ثُمَّ سُنَّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ.
وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ ﷺ بِهِ رَبَّهُ عز وجل مِنْ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ." اهـ

الشرح: السنة في اللغة بمعنى: الطريقة، وفي علم الحديث: هو ما أضيف إل النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، فكل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم أو فعله أو أقره فهو داخل في السنة النبوية، والسنة النبوية هي مصدر تشريع ثاني، فمصادر التشريع المتفق عليها أربع: القرآن، والسنة، والإجماع، والقياس.

والسنة لها مع القرآن أربع حالات كما ذكر المصنف رحمه الله تعالى:
الأولى: تفسر القرآن أي توضح المعنى المراد مثال ذلك، تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الظلم بأنه الشرك فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}، شَقَّ ذلكَ علَى أصْحابِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وقالوا: أيُّنا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟! فقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: «ليسَ كما تَظُنُّونَ؛ إنَّما هو كما قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ: {يَا بُنَيَّ لَاتُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}» [البخاري (ح٦٩٣٧)]
وكذلك تفسير {الزيادة} بأنها رؤية الله تعالى كما سبق.

الثانية: تبين القرآن أي توضح مجمله فتفصله، وتقيد مطلقه، وتخصص عمومه، فمثلًا جاء الأمر بإقامة الصلاة ومواقيت الصلاة مجملًا، وتفصيل ذلك في السنة النبوية، وجاء الأمر بعتق رقبة في الكفارة وهذا لفظ عام فجاءت السنة فخصصت رقبة المؤمن، وأمر الله بقطع يد السارق والسارقة عند السرقة وهذا مطلق فجاءت السنة فقيدت هذا الإطلاق وحددت مقدار السرقة التي تقطع فيها اليد وهي «لا قطع إلا في ربع دينار فصاعدًا».

الثالثة: تدل على القرآن: أي ترشد إليه بتأكيد أحكامه وتطبيقها عمليًا والارتباط به وذلك لا يحصل إلا عند تفسير القرآن وبيانه فبدون تفسير القرآن وبيانه لا يحصل الدلالة والإرشاد إلى القرآن للعمل بما دل عليه من الأحكام.

الرابعة: تعبر عنه: تأتي بأحكام جديدة أو معان جديد فتوافق القرآن ولا تخالفه، لأن كلاهما وحي من الله سبحانه وتعالى، وعليه فما لم يوجد في القرآن ووجد في السنة فهو حجة ولا يشترط وروده في القرآن لأن السنة مصدر تشريع لذاته.

ويفهم من كلام الإمام رحمه الله تعالى أن السنة ليست مصدرًا منفصلًا عن القرآن بل هي مكملة له ومفسرة ومبينه لمعانيه كما قال تعالى ﴿وَأَنزَلنا إِلَيكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيهِم وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فهي تعتبر مصدر تشريعي ووحي ثاني من الله سبحانه وتعالى.

وقول الشيخ رحمه الله تعالى:" وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ ﷺ بِهِ رَبَّهُ عز وجل مِنْ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ" اهـ

الشرح: الأحاديث الثابتة الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم التي تلقاها أهل الاختصاص من أهل العلم، خاصة بعلم الحديث بالقبول وأنها أحاديث ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب قبولها والعمل بها وبما يقتضيها، وقوله (وجب الإيمان بها كذلك) الإشارة في: (ذلك) ترجع إلى جملة "مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ" اهـ
ولا يشترط في قبول تلك الأحاديث أن تكون من الأحاديث المتواترة، بل يكفي صحة الإسناد وثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم ليُعمل به سواء في العقيدة أو في الأحكام العملية، فالذين يفرقون بين الاستدلال بالتواتر والآحاد في العقيدة هم أهل البدع، أما الطائفة المنصورة والفرقة الناجية فإن صح الحديث عندهم قبلوه وعملوا به سواء في العلميات – أي العقائد- أو العمليات- أي الأحكام الفقهية-.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.
وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ..» الْحَدِيثَ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.
وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، يَدْخُلانِ الْجَنَّةَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.
وَقَوْلُهُ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غَيْرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أزلِينَ قنِطِينَ، فَيَظَلُّ ينظُرُ إليكم يَضْحَكُ: يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ» حَدِيثٌ حَسَنٌ.
وَقَوْلُهُ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ - وَفِي رِوَايَةٍ:

عَلَيْهَا قَدَمَهُ - فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطٍ قَطٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: «يَقُولُ اللَّهُ عز وجلّ لآدم عليه السلام: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وسعديك، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِك بَعْثًا إِلَى النَّارِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ ولا تُرْجُمَانٌ».

وَقَوْلُهُ - فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ-: «رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُك، أَمْرُك فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُك فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَك فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوْبَنَا وخَطَايَانَا؛ أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِك، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ فَيَبْرَأُ» رواه أبو داود.

وَقولِهِ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» رواه البخاري وغيرُهُ.

وقولِهِ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ ذلك، وَاَللَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُد والترمذي وَغَيْرُهُمَا.

وَقَوْلِهِ للجارية: «أَيْنَ اللَّهُ ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا ؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَك حَيْثُمَا كُنْتَ» حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَقولِهِ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وربَّ الأرضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرقَانِ؛ أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَك شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنْ الْفَقْرِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَوْلِهِ لَمَّا رَفَعَ أَصْحَابُهُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقولِهِ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا: فَافْعَلُوا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

إلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ، فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ - أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، بَلْ هُمْ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ." اهـ

الشرح: هذه ستة عشر حديثًا فيها إثبات الصفات التالية لله سبحانه وتعالى: النزول، الفرح، الضحك، العجب، القدم، القول والمناداة وكلاهما يدل على صفة الكلام، علو الله فوق خلقه في السماء، المعية، الأولية، والآخرية، والظاهرية، والباطنية، التجلي.

وهذه من صفات الكمال التي تثبت على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى من غير تحريف ولا تكييف ومن غير تمثيل ولا تعطيل.
وورد فيها صفات منفية وهي صفة الصمم التي تدل على عدم السماع، والغيبة التي تدل على البعد، وأثبت كمال ضدها وهو أنه سميع قريب من عباده سبحانه وتعالى.
وإليك بيان ذلك:
فالحديث الأول: الشاهد منه «ينزل ربنا...» فالنزول صفة ذاتية فعلية، وهي صفة حقيقية تليق بالله سبحانه وتعالى لا تماثل صفة نزول المخلوق، ولا يلزم من نزول الله سبحانه أن يكون حالًا في خلق من مخلوقاته، فلا يقاس الله بخلقه ولا يُلزم بلوازم مخلوقاته، فإن كان الكرسي وسع السماوات والأرض، والعرش سقف المخلوقات لا شيء أكبر منه من خلق الله ومع ذلك السماوات السبع والأرضون السبع مقابل العرش تعتبر كالحلقة المعدنية الملقاة في الصحراء، فالله من باب أولى أن يكون أعظم من ذلك سبحانه ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

الحديث الثاني: الشاهد منه «لله أشد فرحًا..» فيه إثبات صفة الفرح لله سبحانه على المعنى اللائق به سبحانه، والمعنى اللائق به هو ظاهر اللفظ على حقيقته، فالفرح صفة ذاتية فعلية تليق بالله سبحانه وتعالى لا تماثل صفة المخلوقين.
الحديث الثالث: الشاهد منه «يضحك الله إلى رجلين..» ففيه إثبات صفة الضحك على ما يليق بالله سبحانه وتعالى من غير مماثلة للمخلوق، فالضحك صفة ذاتية فعلية.
الحديث الرابع: فيه إثبات صفة العجب لقوله صلى الله عليه وسلم: «عَجِبَ ربنا....» ومعنى العجب: هو استغراب الشيء، قال الشيخ العثيمين رحمه الله تعالى:" والثاني: أن يكون السبب فيه خروج هذا الشيء عن نظائره وعما ينبغي أن يكون عليه، بدون قصور من المتعجب، بحيث يعمل عملًا مستغربًا لا ينبغي أن يقع من مثله.
وهذا ثابت لله تعالى؛ لأنه ليس عن نقص من المتعجِّب، ولكنه عَجِبَ بالنظر إلى حال المتعجَّب منه" اهـ [شرح العقيدة الواسطية (ص٣١٤)].
وفي الحديث كذلك إثبات صفة قرب الله أي معيته، ونظره، وضحكه، وكل هذه صفات على حقيقتها ثابتة لله سبحانه وهي من الصفات الذاتية الفعلية.
الحديث الخامس: فيه إثبات صفة القدم لله سبحانه، وفي بعض الروايات رجله، فالقدم والرجل من أعضاء الجوارح بالنسبة للمخلوق، لكنه صفات تليق بالله سبحانه وتعالى فلا نثبت أنها جوارح ولا ننفي ذلك لأن مصطلح الجوارح من المصطلحات الموهمة التي يستغلها أهل التعطيل من أجل نفي صفات الله عز وجل، والقاعدة عندنا هو إثبات ما جاء في الكتاب والسنة ونفي ما جاء في الكتاب والسنة من الصفات ولا نزيد على ذلك، فالقدم أو الرجل نقول عنها صفات ذاتية لله سبحانه وهي

على الحقيقة، وتليق به سبحانه، ولا يضر استشناع المعطلة واستنكارهم فإن استنكارهم لم يقف على إثبات هذه الصفة فإنهم ينفون غالب الصفات كالاستواء والعلو الذاتي والرحمة والحكمة وغير ذلك من الصفات، وإثبات القدم أو الرجل يقال فيه ما يقال في عموم صفات الله أنها صفات تليق بالله سبحانه لا تماثل صفات المخلوقين والله أعلم بكيفيتها لكن نجزم بأن الله واحد أحد لا مثيل له.

الحديث السادس: فيه إثبات المناداة من الله عز وجل، فالله ينادي عباده كما ورد في حديث النزول في الثلث الأخير من الليل، وكذلك نادى آدم عليه السلام كما في هذا الحديث، وسينادي يوم القيامة فيسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، والمناداة لا تكون إلا بصوت يُسمع، فالمعنى أن الله تعالى إذا تكلم يُسمَع صوته.

الحديث السابع: فيه إثبات صفة الكلام لله عز وجل وقد سبق بيان ذلك، وصفة الكلام صفة ذاتية فعلية على الحقيقة تليق بالله سبحانه وتعالى.

الحديث الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر: فيها إثبات علو الله سبحانه وتعالى فوق خلقه بذاته على عرشه الذي فوق السماوات السبع، فالعرش سقف المخلوقات وسقف الفردوس كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« ... إنَّ في الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، أعَدَّها اللَّهُ لِلْمُجاهِدِينَ في سَبيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ ما بيْنَهُما كما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، فإذا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوْسَطُ الجَنَّةِ، وأَعْلَى الجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أنْهارُ الجَنَّةِ» [البخاري (ح٧٤٢٣)].

والله عز وجل فوق كل ذلك فهو فوق كل شيء بذاته ولا شيء فوقه ولا شيء معه سبحانه.

الحديث الثاني عشر والثالث عشر: فيهما إثبات صفة المعية، فالله عز وجل معنا بعلمه وقدرته وسمعه وبصره إلى آخر ما وضحناه عند ذكر الإمام للآيات، وذكرنا أقسام المعية، وأما الحديث الثالث عشر وفيه أن الله قِبَلَ وجه المصلي، فلا يتعارض مع النصوص التي تدل على علو الله فوق خلقه ومعيته، فالله عز وجل أمام المصلي وهو باق في علوه سبحانه، وهو مع خلقه بسائر صفاته، فانظر إلى القمر يكون أمامك وهو في السماء، وهو مخلوق، فما المانع أن يكون الله في علوه وهو أمامك ومعك بصفاته!

الحديث الرابع عشر: فيه إثبات ربوبية الله سبحانه وتعالى وأولية الله وآخريته وظهوريته وباطنيته وقد سبق بيان ذلك في موضعه.

الحديث الخامس عشر: فيها ذكر صفات النفي وقد ذكر المصنف صفتين من صفات النفي وهما الصمم والغيبة، وأثبت كمال ضدهما بأنه سميع قريب، وهذه هي القاعدة عند ذكر صفات النفي لا بد من إثبات كمال ضدها، وكذلك فيه إثبات صفة معية الله عز وجل مع خلقه.

الحديث السادس عشر: فيه إثبات صفة التجلي وهو ظهور الله عز وجل لخلقه، فحينها يراه عباده المؤمنين.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ سبحانه وتعالى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ (الْجَهْمِيَّة) وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ (الْمُشَبِّهَةِ).
وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ (الْقَدَرِيَّةِ) وَ (الْجَبْرِيَّةِ).
وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ (الْمُرْجِئَةِ) وبين الوعيدية مِنْ (الْقَدَرِيَّةِ) وَغَيْرِهِمْ.
وَفِي بَابِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ (الحرورية) وَ (الْمُعْتَزِلَةِ)، وَبَيْنَ (الْمُرْجِئَةِ) وَ (الْجَهْمِيَّةِ).
وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ (الرَّوَافِضِ) وبين (الْخَوَارِجِ)" اهـ.

الشرح: مما يدل على نجاة الفرقة الناجية، أهل السنة والجماعة، أنهم أهل الوسطية، فهم وسط بين الإفراط والتفريط، وقد ذكر شيخ الإسلام أمثلة على وسطية أهل السنة والجماعة في هذه الجملة في خمسة أصول وهي (الصفات، أفعال الله أي القدر، الوعيد، أسماء الإيمان والدين، الصحابة) وسيأتي توضيح ذلك، لكن قبل ذلك ولفهم هذه المسائل على الوجه الصحيح لا بد من التعريف بالمصطلحات الواردة خاصة الفرق الضالة، وقد ورد في هذه الفقرة أحد عشر مصطلحًا ينبغي على طالب العلم معرفتها وهي:

١- أهل التعطيل: هم الذين ينفون صفات الله سبحانه وتعالى ولا يثبتونها والتعطيل إما يكون تعطيل كلي أو تعطيل جزئي، فكل من نفي صفات الله تعالى سواء نفاها كلها أو أثبت بعض ونفى بعض مما ثبت في الكتاب والسنة فهو معطل، وبالتالي فجميع أهل البدع كالأشاعرة والماتريدية والمعتزلة وأمثالهم يقال عنهم معطلة بالمعنى العام، وأما بالمعنى الخاص للمعطلة فهم الذين يقال عنهم الجهمية.

٢- أهل التمثيل: هم الذين يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه فيجعلون صفات الله تماثل صفات المخلوقات تعالى الله وتقدس عن قولهم فهم غلو في جانب الإثبات حتى جعلوا صفات الله تعالى تطابق صفات المخلوق.

٣- الجهمية: نسبة إلى الجهم بن صفوان ت١٢٨هـ، أس الضلالة ورأس الشر وإمام من أئمة تعطيل صفات الله تعالى، وقد تلقف هذه المقالة عن شيخه الجعد بن درهم الذي قتله الأمير خالد القسري وضحى به في عيد الأضحى لأنه كان يزعم بأن الله لا يتكلم وبالتالي فالقرآن مخلوق ولم يتخذ إبراهيم خليلا فتعالى الله عن قوله علوًا كبيرا، وتلقف هذه المقالات وزاد عليها كفريات أخرى الجهم بن صفوان فتولى كبرها، لذا ينسب إليه اعتقاد تعطيل الصفات، فكل من يعطل صفات الله تعالى سواء تعطيل كلي أو تعطيل جزئي يقال عنه جهمي بالإطلاق العام، أما الجهمية بالإطلاق الخاص فهم اتباع هذا الرجل الكافر الذي جمع اعتقاد الشر وهي:
القول بخلق القرآن ونفي أسماء الله وصفاته، والقول بالإرجاء الغالي في باب الإيمان، القول بالجبر في أفعال الله تعالى.

٤- المشبهة: هم أنفسهم الممثلة.
٥- القدرية: هم طائفة غلو في ركن الإيمان بالقدر حتى نفوا المرتبة الأولى وهي مرتبة علم الله سبحانه وتعالى الأزلي، فهم القدرية النفاة وسموا بالقدرية من باب التضاد إي لأنهم ضلوا في هذا الباب وليس لأنهم غلوا في جانب الإثبات، وقد حكم السلف بكفر هؤلاء القدرية الأوائل الذين كانو ينفون علم الله تعالى ويقولون بأن الله لا يعلم بوقوع الأشياء إلا بعدما تقع حينها يعلم بوقوعها.
وقيل أن هذه الطائفة اندثرت ولا وجود لها لكن نشأت طائفة أخرى من القدرية وهم الذين يزعمون أن العبد هو الذي يخلق أفعاله، فهم يثبتون العلم والكتابة، ويقولون أن الله خلق العباد لكن لم يخلق أفعالهم وإنما العبد هو الذي يخلق فعله، لذا قال عنهم أهل العلم بأنهم مجوس هذه الأمة لأنهم يثبتون وجود خالقين، الله خالق الخلق، والإنسان الذي يخلق فعله!
والمقصود أن القدرية هم الذين ضلوا في ركن الإيمان بالقدر وهو من أركان الإيمان الستة، ولهم مقالات وأقوال ليس هذا محل تفصيلها.
٦- الجبرية: هم كل من يقول بأن العبد مجبور على أفعاله، كالمعاصي والكفر فهو مجبور على فعلها فهو كالريشة في مهب الريح لا يملك لنفسه شيئا، فهؤلاء يقابلون الطائفة السابقة من القدرية الذين زعموا أن العبد يخلق أفعاله فجاءت هذه الطائفة فزعمت أن العبد مجبر من الله على أفعاله لا يملك اختيارًا سواء في الطاعة زو المعصية، وهذا انحراف في ركن الإيمان بالقدر.
٧- المرجئة: سموا بهذا الاسم لأنهم يخرجون العمل من مسمى الإيمان، أي أن العبد ولو لم يعمل فهو من أهل الجنة وإيمانه كامل وهم ينقسمون إلى أربعة مذاهب كلهم اتفقوا على عدم إدخال العمل في مسمى الإيمان، فالمذهب الأول: مرجئة الجهمية الذين يقولون أن الإيمان هو معرفة الله فقط، وهؤلاء من غلاة المرجئة وهذا من أفسد الأقوال ويلزمهم أن إبليس وفرعون من المؤمنين!
المذهب الثاني: مرجئة الكرّامية الذين يقولون إن الإيمان قول باللسان فقط، والكرّامية نسبة لمحمد بن كرّام السجستاني، المذهب الثالث: مرجئة الأشاعرة والماتريدية عندهم أن الإيمان تصديق بالقلب، المذهب الرابع: مرجئة الفقهاء يقولون أن الإيمان تصديق القلب وقول اللسان.
فجميع هذه المذاهب الإرجائية يجمعها إخراج العمل من مسمى الإيمان.
٨- الحرورية: هم فرقة الخوارج الذين انشقوا عن علي رضي الله عنه وحصلت قضية التحكيم، فتجمعوا في منطقة تسمى حروراء قرب الكوفة، سموا نسبة لتجمعهم في هذا الموضع، ويقال عنهم كذلك النهروانيين أو أهل النهروان نسبة إلى منطقة النهروان وهي منطقة تقع بين بغداد وحلوان جرت فيها معركة بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهذه الطائفة الخارجية وقتلهم شر قتلة، فهذه الفرقة الخارجية تعتبر سلف جميع الخوارج الذين جاؤا من بعدهم فيقال عنهم الخوارج والحرورية والنهروانية ولهم تسميات أخرى.
٩- المعتزلة: فرقة من فرق الوعيدية الذين يغلبون نصوص الوعيد على نصوص الوعد، وسموا بهذا

الاسم لاعتزالهم مجلس الحسن البصري رحمه الله لما جرى مناقشة قضية الفاسق الملي هل يقال عنه مؤمن أو كافر؟ فابتدع واصل بن عطاء قول: نقول هو في منزلة بين المنزلتين فلا نقول مؤمن ولا نقول كافر، ثم اعتزل مجلس الحسن البصري فقال الحسن اعتزلنا واصل فسموا يومها بالمعتزلة لاعتزالهم مجلس الحسن وقولهم بهذا القول المحدث الذي ليس عليه أهل السنة والجماعة ثم تطور أمرهم إلى أن قالوا بتقديم العقل على النقل، وعطلوا صفات الله تعالى واثبتوا له الأسماء بلا صفات فيقولون عليم بلا علم قدير بلا قدرة سميع بلا سمع بصير بلا بصر، وقالوا بخلق القرآن وانتصروا لهذا القول حتى جرت فتنة عظيمة بسببهم وقتل من قتل من العلماء وامتحن من امتحن منهم وعذب عذابًا شديدا كالإمام أحمد رحمه الله تعالى والإمام أحمد بن نصر الخزاعي وغيرهم كثير

١٠- الروافض: فرقة من فرق الشيعة غلوا في حب آل البيت وترفض خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وتعتقد كفر الصحابة إلا قلة قليلة، ويؤمنون بعصمة الأئمة، وسموا بالرافضة لرفضهم زيد بن علي وهو من آل البيت حينما طلبوا منه أن يسب أبا بكر وعمر وقال عنهما أنهما وزيرا جدي، فقالوا له إذن نرفضك فسموا من يومها بالرافضة، ولهم مقالات كفرية وهم فرقة متعددة.

١١- الخوارج: سموا بهذا الاسم لخروجهم على حكام المسلمين على رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويعتقدون كفر أصحاب المعاصي، يحكمون بخلودهم في النار، وهم فرق متعددة ولهم أقوال متنوعة يجمعهم القول بالخروج على الحكام المسلمين فكل من يرى الخروج على الحكام المسلم فهو خارجي.

الأصل الأول: قال الشيخ رحمه الله تعالى:" فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ سبحانه وتعالى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ (الْجَهْمِيَّة) وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ (الْمُشَبِّهَة)" اهـ

الشرح: هذه مسألة الصفات، فأهل السنة والجماعة وسط بين المعطلة والممثلة، فالمعطلة بالغوا في التنزيه حتى وقعوا في نفي صفات الله عز وجل، والممثلة بالغوا في الإثبات حتى وقعوا في تمثيل الخالق بالمخلوق، أما أهل السنة والجماعة فهم وسط بينهم فأثبتوا على الوجه اللائق مع التنزيه من مماثلة صفات الله بصفات المخلوق.

الأصل الثاني: قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ (الْقَدَرِيَّةِ) وَ (الْجَبْرِيَّةِ)" اهـ

الشرح: هذه مسألة القدر، فأهل السنة والجماعة وسط بين القدرية والجبرية، فالقدرية غلوا في جانب النفي فزعموا أن العبد مستقبل بفعله ومشيئته وأنه هو الذي يخلق فعله والله لم يخلق فعله وليس له

مشيئة ولا إرادة، والجبرية غلوا في جانب الإثبات حتى سلبوا الإنسان القدرة والإرادة والمشيئة والاختيار فالله فاعل كل شيء والمخلوق مجبور على فعل كل شيء حتى الكفر والشرك، أما أهل السنة والجماعة قالوا أن الإنسان له حرية الاختيار والإرادة والمشيئة وأن أفعاله هي باختياره وإرادته والله خالق الخلق وأفعالهم، وإرادة العبد واختياره لا تخرج عن مشيئة الله وإرادته، فالله تعالى خلق في المخلوق الإرادة والاختيار ففعل العباد ما اختاره هو وأراده، لذا وقوع الإنسان بالمعصية هو باختياره وإرادته، وفعله للطاعة هو باختياره وإرادته.

الأصل الثالث: قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ (الْمُرْجِئَةِ) وبين الوعيدية مِنْ (الْقَدَرِيَّةِ) وَغَيْرِهِمْ" اهـ

الشرح: الوعيد يعني عذاب الله وعقابه، فالمرجئة غلوا في تغليب جانب نصوص الوعد حتى زعموا أن العبد لا يعذب ولا يدخل النار لأنه مؤمن، والوعيدية وهم الخوارج والمعتزلة غلوا في تغليب جانب نصوص الوعيد وهي نصوص العذاب لمن عصى الله تعالى فكفروا صاحب المعصية وأوجبوا له الخلود في النار وأن الله يجب عليه أن يعذبهم!، أما أهل السنة والجماعة فجمعوا بين نصوص الوعد والوعيد وقالوا أن من كان داخل دائرة الإسلام فهو تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى إن شاء عذب من يشاء وعفى عمن يشاء، وأن من استحق العذاب عُذّب بقدر ذنوبه ثم يُخرج من النار ولا يُخلد فيها لدلالة النصوص التي فيها القول بإخراج عصاة الموحدين من النار، وبالتالي جمع أهل السنة بين نصوص الوعد والوعيد وسلموا من غلوا المرجئة وغلوا الوعيدية.

الأصل الرابع: قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَفِي بَابِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ (الحرورية) وَ (الْمُعْتَزِلَةِ)، وَبَيْنَ (الْمُرْجِئَةِ) وَ (الْجَهْمِيَّة)" اهـ

الشرح: هذا باب الأسماء والدين، يعني صاحب المعصية ماذا نسميه؟ هل نقول عنه مؤمن كما يقول المرجئة؟ أم نقول كافر كما يقول الخوارج؟ فالمرجئة كلهم يزعمون أن صاحب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان لأن الإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص فإن ذهب بعضه ذهب كله لذا من قالوا بإيمانه – حسب مذاهبهم التي سبق ذكرها- فهو لو فعل ما فعل من الذنوب والمعاصي فهو مؤمن كامل الإيمان مستحق لدخول الجنة ولا يستحق دخول النار! وقابلهم في الغلو من جانب آخر الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فقالوا من وقع في معصية نسميه كافر وحكمه أنه مستحق للخلود في النار لا يخرج منها أبدا ما لم يتب، والمعتزلة قالوا لا نقول مؤمن ولا كافر نقول هو في منزلة بين المنزلتين لكنهم يعتقدون أنه لو مات على ذنبه أنه خالد مخلد في جهنم لا يخرج منها.

أما أهل السنة والجماعة فهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء فيقولون: أن صاحب المعصية مؤمن بإيمانه وفاسق بكبيرته، فهو مؤمن لوجود أصل الإيمان عنده، وأما المعاصي فهي دركات منها ما يوقع في الردة ومنها ما لا يوقع في الردة ولا الكفر، فمن وقع في الردة فهو كافر الكفر الأكبر، ومن لم يقع في الردة والكفر بسبب المعصية فهو داخل في دائرة الإسلام وله أحكام المسلمين، وأما التسمية فلا نسلب منه اسم الإيمان ولا نعطيه اسم الإيمان الكامل وننفي عنه الفسوق، فيبقى له مسمى الإيمان ومسمى الفسوق.

الأصل الخامس: قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ (الرَّوَافِضِ) وَبين (الْخَوَارِجِ)" اهـ.

الشرح: هذا متعلق بالصحابة وعلى وجه الخصوص آل البيت من الصحابة، والصحابي هو كل من لقي النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به ومات على ذلك، وال بيت النبي صلى الله عليه وسلم هم: أزواجه، وآل علي، وآل جعفر، وآل العباس، وآل عقيل، وآل الحارث ابن عبد المطلب.
فالرافضة غلو في جانب بغض الصحابة ومحبة آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم من آل علي رضي الله عنه ومن كان من ذريته خاصة من كان من ذرية الحسين بن علي رضي الله عنهما، فكفروا أغلب الصحابة إلا قلة قليلة، أما الخوارج فغلوا في جانب بغض آل البيت من آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذريته وكذلك ابغضوا بعض الصحابة كعثمان وعلي رضي الله عنهما وناصبوهم العداء وحكموا بكفرهم، أما أهل السنة والجماعة فهم وسط بين هؤلاء فقالوا نحب الصحابة كلهم ونحب آل البيت كلهم ونسكت عما شجر من خلاف في ذلك الزمان، والواجب علينا محبتهم ونصرتهم والترضي عليهم كلهم من غير إفراط ولا تفريط وما جرى في ذلك الزمان فالله هو الذي يتولى فصل القضاء. فجمعوا بين محبة الصحابة وآل البيت.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ: الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ: مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.
وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ، فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ؛ بَلْ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ إلَيْهِمْ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ - مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا - حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ لَا يَحْتَاجُ إلَى تَحْرِيفٍ وَلَكِنْ يُصَانُ عَنْ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ.

وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ: الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلْقِهِ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ﴾، وَقَال النبي ﷺ :« إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»، وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ - مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ - لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ." اهـ

الشرح: خلاصة الكلام في هذه الفقرة التي ذكرها الشيخ أن فيه رد على نفاة العلو الذاتي لله سبحانه وتعالى، وعلى دعاة الحلول والاتحاد الذين يزعمون أن الله تعالى حالٌّ في مخلوقاته تعالى الله وتقدس عن قولهم علوًا كبيرا، والشيخ لا زال يتكلم عن أول جملة ذكرها في بداية رسالته وهو ما يتعلق بركن الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وأن من جملة ذلك أو ما يتفرع عن ذلك مسألة العلو المتفرعة عن مرتبة الإيمان بأسمائه وصفاته- فقد دل على ذلك القرآن والسنة الصحيحة وقد بلغت درجة التواتر وإجماع السلف الصالح، فأراد أن يبين لك أنه لا تناقض في كون الله سبحانه وتعالى في علوه فوق عرشه بذاته، ويكون مع خلقه أين ما كانوا، فهو معهم بالمعية العامة كما وضحنا ذلك فيما سبق لمعاني المعية، فهو محيط بخلقه بعلمه وسمعه وبصره وقدرته.. إلخ، ومع ذلك فهو باق في علوه على عرشه يعلم ما نسر وما نعلن وما نظهر وما نخفي لا يخفى على الله عز وجل شيء من أمر خلقه، وضرب الشيخ مثالًا - فالأمثلة تقرب المقصود- بالقمر وهو مخلوق من المخلوقات يكون في العلو وأنت أيها المخلوق أينما ذهبت ترى القمر مصاحب لك وهو في علوه، فإن كان هذا الأمر مع مخلوق من مخلوقات الله عز وجل ولا يلزم من كونه في علوه وهو معنا، أنه حالٌّ- داخل- في مخلوق من مخلوقاته، فمن باب أولى أن يكون الله عز وجل في علوه فوق عرشه وهو معنا أين ما كنا من غير أن يكون حالٌّ في مخلوقاته، وهذا ليس صرفًا للكلام عن ظاهره بل هو الظاهر ويحمل على الحقيقة الذي ينبغي اعتقاده، وهذا الكلام كله لا يحتاج إلى تحريف ويصان عن الظنون الكاذبة أي التخرصات والأباطيل كالزعم بأن الله ليس في السماء فلو قلنا أنه في السماء لزم أن يكون داخل مخلوق من مخلوقاته فيكون الله محاط بمخلوقاته وهو أصغر من مخلوقاته، أو أننا إذا قلنا أنه ينزل في الثلث الأخير يلزم من ذلك أن يدخل في مخلوق من مخلوقاته ويترك عرشه فيكون عرشه خاليا، أو أن الله معنا يعني معنا بذاته في كل مكان، فكل هذه الأقوال وغيرها من الظنون الكاذبة يجب إن يصان الله عز وجل من أن يوصف بها جل وعلا.

إذن: النصوص التي فيها إثبات علو الله تعالى فوق خلقه، والنصوص التي تدل على معية الله مع

خلقه، لا تعارض بينها ولا تناقض بل تثبت على وجه الكمال والتنزيه، فنعتقد أن الله سبحانه عال فوق خلقه بذاته العليّة، وهو قريب منهم بالمعية العامة وهي لجميع الخلق والمعية الخاصة وهي لعباده المؤمنين وأهل طاعته.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَمِنْ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَكُتُبِهِ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ؛ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً لَا كَلَامُ غَيْرِهِ؛ وَلَا يَجُوزُ إطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ عِبَارَةٌ عَنْهُ بَلْ إذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ بِذَلِكَ فِي الْمَصَاحِفِ: لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً فَإِنَّ الْكَلَامَ إنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا لَا إلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا. وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ؛ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي وَلَا الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ" اهـ

الشرح: هنا الكلام عن مسألة القرآن، وقد أفردها الإمام ابن تيمية رحمه الله لكثرة خوض أهل الباطل فيها على رأسهم المعتزلة، وتسببوا بإحداث فتنة عظيمة بين المسلمين، ومردّ هذه المسألة وأساس الخلاف فيها: هو تعطيل صفات الله عز وجل ومنها صفة الكلام، فتعطيل صفة الكلام وتحريف معنى هذه الصفة ترتب عليه نشأة القول بخلق القرآن، فأراد المصنف أن يبين لنا عقيدة الفرقة الناجية الطائفة المنصورة في [القرآن الكريم] ما هو؟ هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ فقال في تعريف القرآن:" الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود" يعني يجب عليك أن تصدق تصديق جازم لا شك فيه بأن هذا:

القرآن كلام الله: وليس كلام غيره، وقد دل على ذلك نصوص كثيرة قد سبق للإمام أن ذكرها وهي واضحة الدلالة أن القرآن كلام الله وليس كلام غيره، ﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ المُشرِكينَ استَجارَكَ فَأَجِرهُ حَتّى يَسمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبلِغهُ مَأمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُم قَومٌ لا يَعلَمونَ﴾ [التوبة: ٦]

فليس هو كلام جبريل ولا كلام محمد صلى الله عليه وسلم بل كلام الله، وإن كان كلام الله فكلام الله صفة من صفاته، وصفات الله تعالى غير مخلوقة فمن زعم أن القرآن مخلوق يلزمه أن صفة الكلام مخلوق، وإن كان الله عز وجل يخلق له صفة الكلام معنى ذلك أن الله عز وجل كان ناقصًا لا يتكلم فخلق له صفة الكلام فتكلم، إلى غير ذلك من اللوازم التي تبين بطلان هذا القول.

منزّل: يعني من عند الله سبحانه وتعالى {هذا كتاب أنزلناه مبارك} {إنا أنزلناه في ليلة القدر}.
غير مخلوق: أي لم يخلقه الله سبحانه لأن القرآن كلام الله وكلام الله صفة من صفاته كما قلنا، وصفاته غير مخلوقة، والله عز وجل فرّق بين خلقه وأمره فقال {ألا له الخلق والأمر} فأمر الله شيء

وخلقه شيء، وأمره يعتبر من كلامه، فتفريق الله بين أمره وبين خلقه يدل على أن كلامه غير مخلوق ومن ضمن ذلك هذا القرآن الكريم.

منه بدأ: يعني ابتدأ وظهور هذا الكلام من الله سبحانه وتعالى فالله هو المتكلم به لم يُسبق أن تُكلِّمَ بهذا الكلام قبل الله سبحانه أحد، فبداية نزوله من الله سبحانه وتعالى وليس من مخلوق من مخلوقاته.

وإليه يعود: يعني يرفع هذا الكلام آخر الزمان من المصاحف ومن الصدور روى عبد الرزاق الصنعاني في [مصنفه (٤/ ٩٥) (أثر ٦١٥٤)] عَنْ شَدَّادٍ، أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ:" لَيُنْتَزَعَنَّ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، كَيْفَ يُنْتَزَعُ وَقَدْ أَثْبَتْنَاهُ فِي صُدُورِنَا وَأَثْبَتْنَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا؟ قَالَ: يُسْرَى عَلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي قَلْبِ عَبْدٍ مِنْهُ وَلَا مُصْحَفٍ مِنْهُ شَيْءٌ، وَيُصْبِحُ النَّاسُ فُقَرَاءَ كَالْبَهَائِمِ، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾"اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في مناظرته للواسطية:" وَلَمَّا جَاءَتْ مَسْأَلَةُ الْقُرْآنِ: «وَمِنْ الْإِيمَانِ بِهِ الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ. غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ» نَازَعَ بَعْضُهُمْ فِي كَوْنِهِ «مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ» وَطَلَبُوا تَفْسِيرَ ذَلِكَ. فَقُلْت: أَمَّا هَذَا الْقَوْلُ: فَهُوَ الْمَأْثُورُ الثَّابِتُ عَنْ السَّلَفِ مِثْلُ مَا نَقَلَهُ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ قَالَ: «أَدْرَكْت النَّاسَ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً يَقُولُونَ: اللَّهُ الْخَالِقُ وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ، إلَّا الْقُرْآنُ فَإِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ». وَقَدْ جَمَعَ غَيْرُ وَاحِدٍ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْآثَارِ عَنْ النَّبِيِّ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ كَالْحَافِظِ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ نَاصِرٍ وَالْحَافِظِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ المقدسي وَأَمَّا مَعْنَاهُ: فَإِنَّ قَوْلَهُمْ: مِنْهُ بَدَأَ. أَيْ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ مِنْ لَدُنْهُ لَيْسَ هُوَ كَمَا تَقُولُ الْجَهْمِيَّة: أَنَّهُ خُلِقَ فِي الْهَوَى أَوْ غَيْرِهِ أَوْ بَدَأَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ. وَأَمَّا إلَيْهِ يَعُودُ: فَإِنَّهُ يَسْرِي بِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ الْمَصَاحِفِ وَالصُّدُورِ فَلَا يَبْقَى فِي الصُّدُورِ مِنْهُ كَلِمَةٌ وَلَا فِي الْمَصَاحِفِ مِنْهُ حَرْفٌ وَوَافَقَ عَلَى ذَلِكَ غَالِبُ الْحَاضِرِينَ وَسَكَتَ الْمُنَازِعُونَ." اهـ

فالله تكلم بهذا الكلام حقيقة، كلام مسموع بصوت، سمع جبريل هذا الكلام من الله سبحانه، ثم بلغه النبي صلى الله عليه وسلم وبلغه النبي صلى الله عليه وسلم أمته.

ثم بين شيخ الإسلام أنه لا يجوز أن يقال أن هذا القرآن حكاية عن كلام الله، أو عبارة عنه.

القول بأن القرآن حكاية عن كلام الله: هو قول الكُلاّبية اتباع عبد الله بن سعيد بن كُلاّب، فقالوا بأن هذا القرآن ليس هو كلام الله حقيقة وإنما هو حكاية عن كلام الله، يحكى بحروف وأصوات مخلوقة من المخلوق تحاكي كلام الله سبحانه القائم في نفسه!

والقول بأن القرآن عبارة عن كلام الله: هو قول الأشاعرة نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، يقولون لا نقول حكاية لكن نقول هو عبارة عن كلام الله، وكلام الله المقصود به الكلام النفسي، فجبريل عليه الصلاة والسلام ألهمه الله تعالى بما في نفسه فعبر به جبريل عليه السلام عن الله تعالى، يعني مثلًا لو أن شخصًا أشار إليك بشيء ففهمت مراده فأخبرت أنت أنه يقول كذا وكذا فهذا تعبير منك أنت عن مراد هذا المشير، فكذلك يكون الحال هنا أن جبريل عليه السلام ألهم المعنى القائم في نفس الله فعبر جبريل بهذا الكلام النفسي – كما يزعمون-.

وكِلا القولين اتفقا على أن هذا القرآن الكريم ليس هو كلام الله تعالى حقيقة، ولا شك بأن هذا كلام باطل معارض لنصوص الكتاب والسنة التي تدل على أن هذا القرآن كلام الله وليس كلام غيره فإن القول ينسب لقائله لا لمن قال به عن غيره كما وضح ذلك شيخ الإسلام فقال: " إذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ بِذَلِكَ فِي الْمَصَاحِفِ: لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً فَإِنَّ الْكَلَامَ إنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا لَا إلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا. وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ؛ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي وَلَا الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ" اهـ

فهذا القرآن على جميع الجهات، سواء كان مسموعًا أو مكتوبًا في السطور أو محفوظًا في الصدور أو مقروءًا فهو لا يخرج عن كونه كلام الله تعالى، لأن الكلام إنما يضاف لقائله الذي قال به ابتداءًا، أرأيت لو قلت لك «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه» هل هذا قولي أم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لا شك أنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أني أنشدت:

قم في الدجى واتلُ الكتاب ولا تنم* إلا كنومة حائر ولهان

هل هذا قولي أم قول الناظم في نونيته!؟ لا شك أن هذا قول الناظم، كذلك حينما تتلوا هذا القرآن أو تكتبه أو تحفظه في صدرك أو تسمعه يبقى إضافته إلى أنه كلام الله تعالى حقيقة لا كلام غيره سبحانه وتعالى.

والحروف: هي الكلمات والأصوات.

والمعاني: يقصد به حديث النفس.

فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن هذا القرآن حروفه ومعانيه كله كلام الله سبحانه وتعالى غير مخلوق وهو منزل منه بدا وإليه يعود.

أما المعتزلة والجهمية يزعمون أن الكلام هو الحروف، خلقه الله عز وجل كما خلق الناقة وسماها ناقة الله أضافها إليه تشريفًا، وسمى الكعبة بيت الله أضافها إليه تشريفًا، فكذلك يزعمون أنه خَلَقَ هذه الحروف المكونة للقرآن هو كلام الله المخلوق وأضيف إلى الله إضافة تشريف.

والأشعرية والكُلاّبية يزعمون أن القرآن هو المعنى القائم في نفس الله سبحانه وتعالى، ثم خلق حروفًا وأصواتًا تدل على هذا المعنى فقالت الكُلابية هو حكاية عن كلام الله، وقالت الأشعرية هو عبارة عن كلام الله.

[حكم القول بأن القرآن مخلوق]

القول بأن القرآن مخلوق كفر أكبر مخرج من الملة:

قال سُفيانُ بنُ عُيَينةَ رحمه الله تعالى:" القُرْآنُ كَلامُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، من قال: مخلوقٌ، فهو كافِرٌ، ومن شَكَّ في كُفرِه فهو كافِرٌ" اهـ

وقال يزيدُ بنُ هارونَ رحمه الله تعالى:" واللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هو، عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ، الرَّحمنِ الرَّحيمِ؛ من قال: القُرْآنُ مخلوقٌ، فهو زِنديقٌ" اهـ

وقال يحيى بنُ مَعِين رحمه الله تعالى:" من قال: القُرْآنُ مخلوقٌ، فهو كافِرٌ" اهـ

وقال يحيى بنُ يحيى رحمه الله تعالى:" من زعم أنَّ من القُرْآنِ مِن أوَّلِه إلى آخِرِه آيةٌ منه مخلوقةٌ، فهو كافِرٌ" اهـ

وقال أحمدُ بنُ حَنبل رحمه الله تعالى:" من قال: القُرْآنُ مخلوقٌ فهو عندنا كافِرٌ؛ لأنَّ القُرْآنَ مِن عِلمِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وفيه أسماءُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ" اهـ

وقال:" من قال ذاك القَولَ لا يُصَلَّى خَلْفَه الجُمُعةُ ولا غَيرُها، فإن صُلِّيَ خَلْفَه أعاد الصَّلاةَ" اهـ [السنة لعبد الله بن أحمد]

وقال ابنُ تيميَّةَ رحمه الله تعالى:" المأثورُ عن أحمدَ وهو المأثورُ عن عامَّةِ أئمَّةِ السُّنَّةِ والحديثِ أنَّهم كانوا يقولون: من قال: القُرْآنُ مخلوقٌ، فهو كافِرٌ" اهـ [الفتاوى (١٢/ ٤٨٦)]

وقال أيضًا:" اشتَهَر عن أئمَّةِ السَّلَفِ تكفيرُ من قال: القُرْآنُ مخلوقٌ، وأنَّه يستتابُ، فإن تاب وإلَّا قُتِل" اهـ [الفتاوى (١٢/ ٥٠٥)]

وقال أبو الحَسَنِ الأشعريُّ رحمه الله تعالى:" من قال: إنَّ القُرْآنَ غَيرُ مَخلوقٍ، وإنَّ من قال بخَلْقِه كافِرٌ؛ من العُلَماءِ وحَمَلةِ الآثارِ ونَقَلةِ الأخبارِ، وهم لا يُحصَونَ كَثرةً؛ منهم: حمَّادٌ، والثَّوريُّ، وعبدُ العزيزِ بنُ أبي سَلَمةَ، ومالِكُ بنُ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، والشَّافعيُّ رَضِيَ اللهُ عنه وأصحابُه، وأبو

حنيفةَ، وأحمدُ بنُ حَنبلٍ، ومالِكٌ رَضِيَ اللهُ عنهم، واللَّيثُ بنُ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، وسُفيانُ بنُ عُيَينةَ، وهِشامٌ، وعِيسى بنُ يُونُسَ، وجَعفَرُ بنُ غياثٍ، وسَعيدُ بنُ عامرٍ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ مَهديٍّ، وأبو بكرِ بنُ عَيَّاشٍ، ووكيعٌ، وأبو عاصمٍ النَّبيلُ، ويَعلَى بنُ عبيدٍ، ومُحَمَّدُ بنُ يُوسُفَ، وبِشرُ بنُ الفَضلِ، وعبدُ اللهِ بنُ داودَ، وسَلامُ بنُ أبي مطيعٍ، وابنُ المبارَكِ، وعَلِيُّ بنُ عاصمٍ، وأحمدُ بنُ يونُسَ، وأبو نُعَيمٍ، وقبيصةُ بنُ عُقبةَ، وسُلَيمانُ بنُ داودَ، وأبو عُبَيدٍ القاسِمُ بنُ سلامٍ، ويَزيدُ بن هارونَ، وغَيرُهم، ولو تتَبَّعْنا ذِكرَ من يقولُ بذلك لطال الكلامُ، وفيما ذكَرْنا من ذلك مَقنَعٌ، والحمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ" اهـ [الإبانة عن أصول الديانة (ص٩٥)]

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَقَدْ دَخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِرُسُلِهِ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يضامون فِي رُؤْيَتِهِ يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ كَمَا يَشَاءُ اللَّهُ سبحانه وتعالى" اهـ

الشرح: الإيمان كما قلنا هو التصديق الجازم المستلزم للقبول والإنقياد، ومن ذلك مما يدخل في الإيمان بالله وبكتبه ورسله: الإيمان برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

فما وجه دخول مسألة الإيمان برؤية الله تعالى بكونه من الإيمان بالكتب والرسل أيضًا؟

يدخل في الإيمان بالله؛ لأن المسألة متعلقة بذات الله تعالى خاصة ما يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات والرؤية داخل في هذا النوع وهذا أمر واضح.

ويدخل في الإيمان بالكتب؛ لأن هذه المسألة ذكرت في الكتب المنزلة على الرسل فالإيمان بها داخل بركن الإيمان بالكتب الذي يجب على كل مؤمن الإيمان به حتى يصح إيمانه ومما يدل على الإيمان به هو الإيمان بصحة ما جاء فيها من أخبار ومن ذلك رؤية الله عز وجل.

ويدخل في الإيمان بالملائكة؛ لأن الملائكة نزلوا بكلام الله تعالى المشتمل على ذكر هذه الصفة.

ويدخل في الإيمان بالرسل؛ لأنهم المبلغون لهذه الصفة لأقوامهم.

والمقصود: أن المصنف رحمه الله تعالى ذكر في هذه الفقرة عقيدة أهل السنة والجماعة، الفرقة الناجية والطائفة المنصورة: في رؤية الله سبحانه وتعالى، هل الله يرى يوم القيامة أو لا يرى؟

قد أجمع أهل السنة والجماعة -المحضة-، بأن المؤمنين يرون الله عز وجل يوم القيامة، وأما الدنيا فلم يره أحد ولا يراه أحد؛ لعجز الخلق في تكوينهم الخلقي الآن من رؤية الله سبحانه، لذا أخبر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام أنه لن يراه – لما طلب موسى عليه السلام رؤية الله عز وجل- ولن لا تفيد التأبيد كما قال الإمام ابن مالك صاحب الألفية في ألفيته:

ومن رأى النفْيَ بِلنْ مُؤبّدًا * فقوْلَهُ ارْدُدْ وخِلافَهُ اعْضُدَا

لكن موسى عليه السلام وعموم الخلق لا تقوى أبصارهم على رؤية الله عز وجل فقال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿... قالَ لَن تَراني وَلكِنِ انظُر إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ استَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوفَ تَراني فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسى صَعِقًا فَلَمّا أَفاقَ قالَ سُبحانَكَ تُبتُ إِلَيكَ وَأَنا أَوَّلُ المُؤمِنينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإن كان الجبل على صلابته صار ترابًا حينما تجلى الله تعالى، فكيف بهذا المخلوق الضعيف، فمن باب أولى هلاكه.

وأما يوم القيامة، وبعد دخول أهل الجنة الجنة، فالأحوال تختلف، فيمكن رؤية الله عز وجل ذلك الوقت، وهذا الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة، إذن: النصوص الواردة في رؤية الله تعالى هي في رؤية الآخرة لا رؤية الدينا، ومن تلك النصوص الحديث الذي ذكره المصنف رحمه الله تعالى، ففيه أن المؤمنين كما يرون القمر -ليلة البدر يعني ليلة الخامس عشر لما يكتمل القمر فيكون بدرًا مضيئًا كاملًا-، من غير مزاحمة وكُلٌّ يراه وهو في مكانه، فكذلك المؤمنين سيرون الله تعالى من غير مزاحمة، وهذا تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي، وقد ذكر المصنف هنا رؤيتان:

الأولى: في عرصات القيامة: والعرصات جمع عرصة وهي المكان الفسيح، وذلك أن الأرض والسماوات يوم يبعث اللهُ الناس من قبورهم تتغير كما قال سبحانه ﴿يَومَ تُبَدَّلُ الأَرضُ غَيرَ الأَرضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزوا لِلَّهِ الواحِدِ القَهّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فينسف الجبال نسفا ويجعل الأرض ﴿...قاعًا صَفصَفًا ۝ لا تَرى فيها عِوَجًا وَلا أَمتًا﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧] أي مستوية لا اعوجاج فيها ولا أودية وأماكن منخفضة بل أرض مستوية مستقيمة تمام الاستقامة، ففي تلك الحال تكون هناك رؤية لله سبحانه وتعالى، لكن من الذي يراه؟ فالناس في ذلك الموقف ثلاثة أصناف: المؤمنون الخُلّص، والكافرون الخُلّص، والمنافقون.

قيل أن الكفار والمنافقين يرونه لكنهم يرونه رؤية الغاضب ثم يحتجب عنهم.
وقيل أن الكفار لا يرونه، وأما المنافقين يرونه بهذه الرؤية ثم يحتجب عنهم.
وقيل أن الكفار والمنافقين لا يرونه مطلقًا، وهذا هو الصواب الذي عليه جمهور العلماء.

وأما المؤمنين سيرونه وتكون هذه الرؤية الأولى رؤية تعريف وامتحان كما في حديث الرؤية الذي ذكره الإمام ويقال عنه كذلك حديث الصورة لأن فيها أن الله يأتيهم على صورته وتمة الحديث:

«.... كَذلكَ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَومَ القِيامَةِ فيَقولُ: مَن كانَ يَعْبُدُ شيئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَن كانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، ويَتَّبِعُ مَن كانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، ويَتَّبِعُ مَن كانَ يَعْبُدُ الطَّواغِيتَ الطَّواغِيتَ،، وتَبْقَى هذِه الأُمَّةُ فيها مُنافِقُوها، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى في صُورَةٍ غيرِ صُورَتِهِ الَّتي يَعْرِفُونَ، فيَقولُ: أنا رَبُّكُمْ، فيَقولونَ: نَعُوذُ باللَّهِ مِنْكَ، هذا مَكانُنا حتَّى يَأْتِيَنا رَبُّنا، فإذا جاءَ رَبُّنا عَرَفْناهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ تَعالَى في صُورَتِهِ الَّتي يَعْرِفُونَ، فيَقولُ: أنا رَبُّكُمْ، فيَقولونَ: أنْتَ رَبُّنا فَيَتَّبِعُونَهُ...» [البخاري (ح٨٠٦) و مسلم (ح١٨٢) وهذا لفظه] عن أبي هريرة.

واختلاف أهل العلم في مسألة هل يراه المنافقون أو لا بناء على هذا الحديث، فهذا الحديث دليل القائلين بأن المنافقين يرون الله تعالى، الشاهد منه «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون...»، لكن ليس فيه دلالة صريحة وواضحة أن المنافقين يرونه، وهذا قول جمهور أهل العلم بأن المنافقين والكفار لا يرون الله عز وجل يوم القيامة.

الثانية: رؤية أعظم نعيم وذلك حينما يدخلون الجنة فيأتيهم الله عز وجل ويكشف لهم الحجاب فيرونه كما ورد في الحديث من رواية صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا دَخَلَ أهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قالَ: يقولُ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: تُرِيدُونَ شيئًا أزِيدُكُمْ؟ فيَقولونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنا الجَنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟ قالَ: فَيَكْشِفُ الحِجابَ، فَما أُعْطُوا شيئًا أحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ عزَّ وجلَّ. وفي رواية: وزادَ ثُمَّ تَلا هذِه الآيَةَ: {لِلَّذِينَ أحْسَنُوا الحُسْنَى وزِيادَةٌ}» [مسلم (ح١٨١)]

أدلة رؤية الله يوم القيامة:

من القرآن:

قَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وقوله ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾، وقوله ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، وقوله ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

وفي قوله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾.

قال الشَّافعيُّ: "فلمَّا أن حَجَبوا هؤلاء في السَّخَطِ كان في هذا دَليلٌ على أنَّهم يَرَونَه في الرِّضا" قال الرَّبيع: قلتُ: يا أبا عبدِ اللهِ، وبه تقولُ؟ قال: نعم، وبه أدينُ اللهَ، لو لم يوقِنْ محمَّدُ بنُ إدريسَ أنَّه يرى اللهَ لَمَا عَبَد اللهَ تعالى!" اهـ [شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائى (٣/ ٥٦٠)]

من السنة النبوية:

- حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال كُنَّا عِنْدَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيْلَةً - يَعْنِي البَدْرَ - فَقَالَ: إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كما تَرَوْنَ هذا القَمَرَ، لا تُضَامُّونَ في رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ لا تُغْلَبُوا علَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا ثُمَّ قَرَأَ: {وَسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ الغُرُوبِ}» [البخاري (ح٥٥٤) مسلم (ح٦٣٣)].

-حديث صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دَخَلَ أهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قالَ: يقولُ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: تُرِيدُونَ شيئًا أزِيدُكُمْ؟ فيَقولونَ: ألَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ ألَمْ تُدْخِلْنا الجَنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟ قالَ: فَيَكْشِفُ الحِجابَ، فَما أُعْطُوا شيئًا أحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ عزَّ وجلَّ. وفي رواية: وزادَ ثُمَّ تَلا هذِه الآيَةَ: {لِلَّذِينَ أحْسَنُوا الحُسْنَى وزِيادَةٌ}» [مسلم (ح١٨١)].

الإجماع:

قال أبو زُرعةَ وأبو حاتمٍ: "أدرَكْنا العُلَماءَ في جميعِ الأمصارِ حِجازًا وعِراقًا وشامًا ويمنًا، فكان من مَذهَبِهم: ...أنَّه -تبارك وتعالى- يُرى في الآخِرةِ؛ يراه أهلُ الجَنَّةِ بأبصارِهم، ويَسمَعونَ كلامَه كيف شاء، وكما شاء" اهـ [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ١٩٨)]

وقال ابنُ أبي زيد القيروانيُّ: "ممَّا أجمعَت عليه الأئمَّةُ مِن أمورِ الدِّيانةِ، ومِنَ السُّنَنِ التي خلافُها بِدعةٌ وضَلالةٌ... " إلى أن قال:".. أنَّ اللهَ سُبحانَه يراه أولياؤُه في المعادِ بأبصارِ وُجوهِهم لا يُضامُّونَ في رؤيتِه، كما قال عزَّ وجَلَّ في كتابِه وعلى لسانِ نبيِّه... " إلى أن قال: "وكُلُّ ما قَدَّمْنا ذِكْرَه فهو قَولُ أهلِ السُّنَّةِ وأئمَّةِ النَّاسِ في الفِقهِ والحديثِ على ما بَيَّنَّاه، وكُلُّه قَولُ مالكٍ؛ فمنه منصوصٌ مِن قَولِه، ومنه معلومٌ مِن مَذهَبِه" اهـ [الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ لابن أبي زيد (١٠٧-١١٧)]

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَمِنْ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ: فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَبِنَعِيمِهِ.

فَأَمَّا الْفِتْنَةُ: فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَنْ رَبُّك وَمَا دِينُك وَمَنْ نَبِيُّك؟ فَيُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: اللَّهُ رَبِّي وَالْإِسْلَامُ دِينِي وَمُحَمَّدٌ نَبِيِّي.

وَأَمَّا الْمُرْتَابُ فَيَقُولُ: «آه آه لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْته» فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ، إلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ لَصَعِقَ.

ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ: إمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ إلَى أَنْ يوم الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى، فَتُعَادُ الْأَرْوَاحُ إلَى الْأَجْسَادِ.

وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ.

وَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ فِيهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾.

وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ - وَهِيَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ - فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

وَيُحَاسِبُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَأَمَّا الْكُفَّارُ: فَلَا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتِ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ وَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَيُجْزَوْنَ بِهَا.

وَفِي عَرْصَةِ الْقِيَامَةِ: الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً، لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا.

وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ - وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ - يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عليهِ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عليه كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الْإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطَفُ فَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسْرَ عَلَيْهِ كَلَالِيبُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ دَخَلَ الْجَنَّةَ.

فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ الْأُمَمِ: أُمَّتُهُ ﷺ.

وَلَهُ فِي الْقِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ:

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْأُولَى: فَيَشْفَعُ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الْأَنْبِيَاءُ: آدَمُ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليهم من الله السلام الشَّفَاعَةَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.

وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ: فَيَشْفَعُ فِيمَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ - وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ-، فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَلّا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا.

وَيُخْرِجُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ مِنْ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ السَّمَاءِ، وَالْآثَارَةِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي فَمَنْ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ" اهـ

الشرح: بعدما فرغ الإمام رحمه الله تعالى من الكلام عن ركن الإيمان بالله انتقل إلى الكلام عن ركن الإيمان باليوم الآخر وعرّفه بأن اليوم الآخر هو كل ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الموت.

فتكلم عن بعض الوقائع والأحداث التي ستحدث ذلك الوقت وهي أحد عشر مسألة (فتنة القبر ونعيمه وعذابه، البعث بعد الموت، الميزان، الدواوين، الحساب، الحوض، الصراط، القنطرة، أول من يدخل الجنة، الشفاعة، خروج عصاة الموحدين من النار).

لكن قبل وقوع اليوم الآخر سيكون هناك ما يعرف باسم أشراط الساعة، وهي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الأشراط الصغرى: والأشراط جمع شرط وهي العلامة، أي علامات الساعة، فهي علامات تدل على قرب وقوع أشراط الساعة الكبرى وهي القيامة.

فمن تلك العلامات: بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فتح بيت المقدس، ظهور الفتن من المشرق، ضياع الأمانة، قبض العلم وظهور الجهل، انتشار الزنا، كثرة القتل، كثرة الزلازل، قتال اليهود، ظهور المهدي.

القسم الثاني: الأشراط الكبرى: وهي علامات تدل على قرب وقوع الساعة الكبرى، وهي عشر علامات جاء ذكرها في حديث حذيفة رضي الله عنه قال اطَّلَعَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقالَ: ما تَذَاكَرُونَ؟ قالوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قالَ: «إنَّهَا لَنْ تَقُومَ حتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ، الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى

اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بجَزِيرَةِ العَرَبِ، وَآخِرُ ذلكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ اليَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إلى مَحْشَرِهِمْ.» [مسلم (ح٢٩٠١)]

فالعلامات الصغرى تدل على قرب وقوع العلامات الكبرى، والفرق بينهما أن علامات الصغرى تدل على الكبرى، وأنها لا تكون متتابعة بل تكون متفاوتة في الزمن، وأنه لا زال هناك فرصة للتوبة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى.

أما الكبرى فإنها تكون متتابعة علامة تتلوها علامة، وعند ظهور أول علامة لها يغلق باب التوبة فلا يقبل الله بعدها توبة التائبين.

والساعة الكبرى أي القيامة وهي الأحداث العظمى التي ستحدث أولها بعث الناس من قبورهم وانتقالهم إلى المحشر وانتظارهم وقيامهم قيامًا طويلا، ثم يأتي المؤمنين إلى حوض النبي صلى الله عليه وسلم فيشربون منه أما من بدل وغير فلا يرد حوض النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يقوم الناس قيامًا طويلًا فتحصل الشفاعة الكبرى لتعجيل الحساب، ثم العرض والحساب، ثم تطاير الصحف وقراء الكتب، ثم الميزان ثم عبور الصراط، ثم القنطرة وهو جسر يكون بعد تجاوز الصراط يتقاصص المؤمنون حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل ثم بعد ذلك دخول الجنة أو النار على تفصيل في جميع هذه الأحداث.

فهذا باختصار ما يتعلق بعلامات الساعة الصغرى والكبرى وترتيب أحداث يوم القيامة بإجمال، وقد ذكر الإمام رحمه الله الأحداث التي ستكون في اليوم الآخر فمنها ما يكون في حال البرزخ، والبرزخ حياة تكون بعد موت الإنسان وانقطاعه من هذه الدنيا إلى بعث الناس من قبورهم، فما بين حياة الدنيا وحياة الآخرة تكون هناك حياة وسط تسمى بحياة البرزخ وذلك حينما يموت الإنسان ويوضع في قبره سيحصل له:

المسألة الأولى: التي ذكرها الإمام وهي مسألة فتنة القبر ونعيمه وعذابه= أي حياة البرزخ.

ففتنة القبر: المقصود به أنه يأتيه ملكان وهما المنكر والنكير فيجلسان الميت وهو في قبره فيسألانه الأسئلة المشهورة وهي من ربك وما دينك ومن هذا الرجل الذي بعث إليكم، وهكذا حال كل أمة تُسأل هذه الأسئلة فليست هذه الأسئلة خاصة بأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

فمن ثبته الله تعالى أجاب على هذه الأسئلة، والذي سيثبته الله تعالى هو العامل بمقتضيات هذه الأصول الثلاثة، فمعرفتها دون العمل بمقتضاها لا ينفع قائلها في قبره بل لا بد من العلم والعمل، والذي لم يعمل بها كالكافر أو تظاهر بالعمل بها كالمنافق فإنه لا يستطيع الإجابة على هذه الأسئلة فيُضرب بِمِرْزَبَةٍ من حديد، يعني بأداة ثقيلة شبيهة بالمطرقة يعذب بها، فيسمع صوته كل شيء من المخلوقات الحية إلا الإنس – باستثناء من أراد الله عز وجل كالأنبياء والرسل- والجن.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بيْنَما النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ في حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ علَى بَغْلَةٍ له وَنَحْنُ معهُ، إذْ حَادَتْ به فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وإذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ، أَوْ خَمْسَةٌ، أَوْ أَرْبَعَةٌ -قالَ: كَذَا كانَ يقولُ الجُرَيْرِيُّ- فَقالَ: «مَن يَعْرِفُ أَصْحَابَ هذِه الأقْبُرِ؟»
فَقالَ رَجُلٌ: أَنَا، قالَ: «فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟» قالَ: مَاتُوا في الإشْرَاكِ، فَقالَ: «إنَّ هذِه الأُمَّةَ تُبْتَلَى في قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِن عَذَابِ القَبْرِ الَّذي أَسْمَعُ منه».
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بوَجْهِهِ، فَقالَ: «تَعَوَّذُوا باللَّهِ مِن عَذَابِ النَّارِ»، قالوا: نَعُوذُ باللَّهِ مِن عَذَابِ النَّارِ، فَقالَ: «تَعَوَّذُوا باللَّهِ مِن عَذَابِ القَبْرِ»، قالوا: نَعُوذُ باللَّهِ مِن عَذَابِ القَبْرِ، قالَ: «تَعَوَّذُوا باللَّهِ مِنَ الفِتَنِ، ماظَهَرَ منها وَما بَطَنَ»، قالوا: نَعُوذُ باللَّهِ مِنَ الفِتَنِ ما ظَهَرَ منها وَما بَطَنَ، قالَ: «تَعَوَّذُوا باللَّهِ مِن فِتْنَةِ الدَّجَّالِ»، قالوا: نَعُوذُ باللَّهِ مِن فِتْنَةِ الدَّجَّالِ." [صحيح مسلم (ح٢٨٦٧)]

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: مَرَّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقَبْرَيْنِ،
فَقالَ: إنَّهُما لَيُعَذَّبَانِ، وما يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ، أمَّا أحَدُهُما فَكانَ لا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وأَمَّا الآخَرُ فَكانَ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ ثُمَّ أخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَغَرَزَ في كُلِّ قَبْرٍ واحِدَةً، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، لِمَ فَعَلْتَ هذا؟ قالَ: لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عنْهما ما لَمْ يَيْبَسَا» [البخاري (ح٢١٨) ومسلم (ح٢٩٢)]

وأما النعيم فهو أن يتنعم المؤمن الذي ثبته الله وأجاب على الأسئلة في قبره حتى ينفخ الملك الموكل بالنفخ في الصور لبعث الأموات من قبورهم.
وأما العذاب فهو أن يعذب الكافر في قبره حتى ينفخ الملك الموكل بالنفخ في الصور لبعث الأموات من قبورهم.
والعذاب والنعيم يقع على البدن والنفس معًا وهذا باتفاق أهل السنة والجماعة.

وهنا مسألة: هل الذي مات ولم يدفن في قبر كالذي أكلته السباع أو مات في البحر أو أحرق وصار كالرماد، هل يحصل عليه ما يسمى بفتنة القبر وعذابه ونعيمه؟
الجواب: نعم، والله أعلم بكيفية ذلك لأنه ليس من لوازم وقوع الفتنة والعذاب والنعيم أن يكون الميت في قبر، بل كل إنسان يموت يجري عليه هذا لعموم الأدلة.

المسألة الثانية: وهي مسألة البعث، والبعث هو إحياء الناس بعد موتهم بعدما ينفخ الملك بالصور النفخة الثانية، واختلف أهل العلم عن عدد تلك النفخات التي ينفخ بها الملك والصواب أنها نفختان:
النفخة الأولى: ينفخ فيها الملك فيموت كل مخلوق حي أراد الله عز وجل له أن يموت، وتسمى نفخة الصعق ونفخة الفزع ونفخة الموت،

النفخة الثانية: ينفخ فيها الملك فيحيا كل مخلوق حي مات من الإنس والجن للوقوف بين يدي الله عز وجل للحساب والجزاء والعقاب، وتسمى نفخة البعث.
وبعث الناس بعد موتهم دل عليه أدلة كثيرة من الكتاب والسنة وإجماع المسلمين والمنكر للبعث كافر، وقد ذكر الشيخ حال الناس حينما يبعثون من قبورهم أنهم حفاة عراة غرلًا أي غير مختونين، يخرجون من قبورهم كما ولدتهم أمهاتهم، دل على هذا حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَومَ القِيامَةِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، النِّساءُ والرِّجالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ! قالَ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: يا عائِشَةُ، الأمْرُ أشَدُّ مِن أنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ.» [البخاري (ح٦٥٢٧) ومسلم (ح٢٨٥٩) وهذا لفظه].

وأما دنو الشمس وإلجامهم بالعرق فلحديث سليم بن عامر قال حدثني المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تدني الشمس، يوم القيامة، من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل»، قال سليم بن عامر: فوالله! ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين. قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما». قال وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه. [صحيح مسلم (٢٨٦٤)]

المسألة الثالثة: وهي الميزان، وهو ميزان حقيقي له كفتان ولسان كما في حديث البطاقة المشهور عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله وعليه وسلم قال: «إنَّ اللَّهَ سيُخَلِّصُ رجلًا من أمَّتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ فينشُرُ علَيهِ تسعةً وتسعينَ سجلًّا، كلُّ سجلٍّ مثلُ مدِّ البصرِ ثمَّ يقولُ: أتنكرُ من هذا شيئًا؟ أظلمَكَ كتبتي الحافِظونَ؟ يقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: أفلَكَ عذرٌ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: بلَى، إنَّ لَكَ عِندَنا حسنةً، وإنَّهُ لا ظُلمَ عليكَ اليومَ، فيخرجُ بطاقةً فيها أشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، فيقولُ: احضُر وزنَكَ فيقولُ يا ربِّ، ما هذِهِ البطاقةُ مع هذِهِ السِّجلَّاتِ؟ فقالَ: فإنَّكَ لا تُظلَمُ، قالَ: فتوضَعُ السِّجلَّاتُ في كفَّةٍ، والبطاقةُ في كفَّةٍ فطاشتِ السِّجلَّاتُ وثقُلتِ البطاقةُ، ولا يثقلُ معَ اسمِ اللَّهِ شيءٌ» [الترمذي (ح٢٦٣٩) ابن ماجه (ح٣٤٨٨) وصححه الألباني].

ميزان توزن به الأعمال، فيوزن بهذا الميزان ثلاثة: العامل، وعمله، وصحيفة عمله.
أما العامل: لحديث أبي هرير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّه لَيَأْتي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يومَالقِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ، وقالَ: اقْرَؤُوا {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}» [البخاري (ح٤٧٢٩) مسلم (ح٢٧٨٥)]

وأما العمل: فدليله حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الطَّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والحمدُ لله تملأُ الميزان...» [مسلم (ح٢٢٣)] وحديث «كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» [البخاري (ح٦٦٨٢) مسلم (ح٢٦٩٤)]
وأما صحيفة العمل: فدليله حديث البطاقة الذي سبق ذكره.

المسألة الرابعة: وهي صحائف الأعمال، فكل إنسان قد وكل الله عز وجل من يكتب حسناته وسيائته، فما من قول يتلفظ به إلا وكتب له أو عليه، ويوم القيامة يعرض عليه ما عمل وقال من أعمال الخير والشر، فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه فيقول هآوم اقرؤا كتابيه، ومنهم من يأخذ كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه.
والآية التي ذكرها الشيخ ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ...﴾ طائره يعني عمله ملازمًا له فلا يحاسب بعمل غيره فكل شيء مسجل عليه في كتاب محفوظ ويطالب بقراءته بنفسه لظهور الحجة عليه أكثر ولا يجحد منها شيئا.

المسألة الخامسة: الحساب، وهو بمعنى أن يعدد الله عز وجل على العباد سيئاتهم وحسناتهم التي فعلوها فيقول فعلت كذا وفعلت كذا.
وحال الناس بخصوص الحساب: أن منهم من يدخل الجنة من غير حساب ولا عذاب، ومنهم من يحاسب حسابًا يسيرًا ثم ينقلب إلى أهله مسرورا، ومنهم من يحاسب حسابًا شديدًا وهذا يشمل المسلم العاصي والكافر.
فالمسلم يكون تحت مشيئة الله عز وجل إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، أما الكافر فإنه يعدد عليه أعماله فيقال فعلت كذا وفعلت كذا ثم يلقى في جهنم ولا يغفر له.

المسألة السادسة: الحوض وهو مجتمع الماء النازل من الكوثر، يرده المؤمنون يوم القيامة في أرض المحشر يشربون منه، ولكل نبي حوضًا، وقد ذكر الإمام بعض أوصاف الحوض كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحاح، وهناك فرق بين الحوض والكوثر، فالكوثر هو النهر الجاري في الجنة أعطاه الله عز وجل نبينا صلوات ربي وسلامه عليه، فمن هذا النهر يصب في حوض النبي صلى الله عليه وسلم الذي يكون في أرض المحشر، إذن نهر الكوثر في الجنة، والحوض في أرض المحشر ماؤه من ماء الكوثر الذي في الجنة، وقد يطلق على الحوض الكوثر من باب التغليب.
فأول من يأتي الحوض فيشرب منه (فقراء المهاجرين) ثم يأتي باقي الناس تباعًا.
وهناك أناس محرومون من الشرب من الحوض وهم: المرتدون، والمبتدعة.

المسألة السابعة: الصراط، وهو جسر ممدود فمن يسقط منه يسقط إلى النار والعياذ بالله، وصفة هذا الصراط: أنه أدق من الشعر، وأحد من السيف، وذكر الإمام رحمه الله حال الناس الذي يمرون على هذا الجسر بهذه الصفة، وهم تسعة أصناف ذُكِر بعضُها كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «... ثُمَّ يُؤْتَى بالجَسْرِ فيُجْعَلُ بيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، قُلْنَا: يا رَسولَ اللَّهِ، وما الجَسْرُ؟ قالَ: مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عليه خَطَاطِيفُ وكَلَالِيبُ، وحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌلَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ، تَكُونُ بنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، المُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وكَالْبَرْقِ وكَالرِّيحِ، وكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ والرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، ونَاجٍ مَخْدُوشٌ، ومَكْدُوسٌ في نَارِ جَهَنَّمَ، حتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا..» [البخاري (ح٧٤٣٩)]

فيكون حال الناس ثلاثة:

١- ناج مسلّم.

٢- مخدوش مسلّم.

٣- مكدوس أي ملقى في جهنم.

فمرور الناس على هذا الصراط بحسب أعمالهم والتزامهم بدينهم.

وقبل المرور على الصراط تكون هناك ظُلْمة، ففي ذلك الوقت يخادع الله المنافقين كما كانوا يخادعون الله والمؤمنين في الدنيا، فيعطى المؤمنون والمنافقون نورهم بعدما يتبع الكفار معبودتهم ويتساقطون في جهنم، فيمر المؤمنون على الصراط بقدر قوة النور الذي عندهم المكتسب من أعمالهم يعني تتفاوت سرعة مرورهم بقدر قوة النور الذي عندهم، أما المنافقون فيعطون نورهم في البداية خديعة، جزاء وفاقا ثم يُطفئ نورهم فيتيهون فيقولون للمؤمنين كما قال الله تعالى عنهم ﴿يَومَ يَقولُ المُنافِقونَ وَالمُنافِقاتُ لِلَّذينَ آمَنُوا انظُرونا نَقتَبِس مِن نورِكُم قيلَ ارجِعوا وَراءَكُم فَالتَمِسوا نورًا فَضُرِبَ بَينَهُم بِسورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فيهِ الرَّحمَةُ وَظاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذابُ﴾ [الحديد: ١٣]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «...ويُعْطَى كُلُّ إنْسانٍ منهمْ مُنافِقًا، أوْ مُؤْمِنًا نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ وعلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلالِيبُ وحَسَكٌ، تَأْخُذُ مَن شاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ المُنافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو المُؤْمِنُونَ...» [صحيح مسلم (١٩١)]

والخلاصة: أن الذين يمرون على الصراط هم المؤمنون من جميع الأمم وعصاتهم، فالعصاة منهم من يسلم بعدما يُخدش، ومنهم من يسقط في النار فيعذب بقدر ذنبه ويخرج من النار بعدما يمتحش.

وأما الكفار فإنهم لا يمرون على الصراط بل يتساقطون إلى جهنم مباشرة.

وأما المنافقين فيُعطون نورًا في البداية خديعة لهم ثم ينطفئ نورهم فيتساقطون في جهنم.

والكلاليب جمع كَلُّوب وهو الخطّاف يخطف الناس بإسقاطهم في النار فمنهم من يصاب بالكلاليب وينجو ولا يسقط ومنهم من يصاب فيه فيسقط، بحسب أعمالهم.

وأول من يمر على هذا الصراط هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ودعاء الرسل كلهم يوم القيامة اللهم سلم سلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «... ويُضْرَبُ الصِّرَاطُ بيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فأكُونُ أنَا وأُمَّتي أوَّلَ مَن يُجِيزُهَا، ولَا يَتَكَلَّمُ يَومَئذٍ إلَّا الرُّسُلُ، ودَعْوَى الرُّسُلِ يَومَئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ..» الحديث [البخاري (ح٧٤٣٧) مسلم (ح١٨٢)]

المسألة الثامنة: القنطرة، وهو جسر خاص بالمؤمنين بين الجنة والنار، بعدما ينجون من الصراط المضروب على ظهر جهنم، ويكون قبل دخول الجنة، سيكون هناك قصاص بين المؤمنين من بعضهم بعض حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل على أحد، كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بقَنْطَرَةٍ بيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بيْنَهُمْ في الدُّنْيَا، حتَّى إذَا نُقُّوا وهُذِّبُوا أُذِنَ لهمْ بدُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بمَسْكَنِهِ في الجَنَّةِ أدَلُّ بمَنْزِلِهِ كانَ في الدُّنْيَا.» [البخاري (ح٢٤٤٠)]

المسألة التاسعة: أول من يستفتح باب الجنة ويدخلها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آتي بابَ الجَنَّةِ يومَ القِيامَةِ فأسْتفْتِحُ، فيَقولُ الخازِنُ: مَن أنْتَ؟ فأقُولُ: مُحَمَّدٌ، فيَقولُ: بكَ أُمِرْتُ لا أفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ» [مسلم (ح١٩٧)]
وأول الأمم دخولًا هذه الأمة المحمدية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَحْنُ الآخِرُونَ الأوَّلُونَ يَومَ القِيامَةِ، ونَحْنُ أوَّلُ مَن يَدْخُلُ الجَنَّةَ، بَيْدَ أنَّهُمْ أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِنا، وأُوتِيناهُ مِن بَعْدِهِمْ، فاخْتَلَفُوا، فَهَدانا اللَّهُ لِما اخْتَلَفُوا فيه مِنَ الحَقِّ، فَهذا يَوْمُهُمُ الذي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدانا اللَّهُ له، قالَ: يَوْمُ الجُمُعَةِ، فالْيَومَ لَنا، وغَدًا لِلْيَهُودِ، وبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصارَى» [مسلم (ح٨٥٥)]

المسألة العاشرة: الشفاعة، تعريف الشفاعة، وأقسامها، وأنواعها:
تعريفها: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.
وتنقسم إلى قسمين:
١- شفاعة مثبتة: وهي الشفاعة الشرعية المقبولة التي جاءت في النصوص لكن لها ثلاث شروط:
الأول: رضا الله عن الشافع.
الثاني: إذن الله عز وجل للشافع أن يشفع.
الثالث: رضاه عن المشفوع.

ودليل ذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿وَكَم مِن مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغني شَفاعَتُهُم شَيئًا إِلّا مِن بَعدِ أَن يَأذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشاءُ وَيَرضى﴾ [النجم: ٢٦]
وقوله ﴿وَلا يَشفَعونَ إِلّا لِمَنِ ارتَضى﴾ [الأنبياء: ٢٨]
فالشفاعة تطلب من الله سبحانه وتعالى فلا يُسأل إلا الله تعالى فيها أن يقبل شفاعة فلان فيه، فهي تطلب من الله عز وجل ولا تطلب من المخلوق مهما كانت مكانته.

٢- شفاعة منفية: وهي الشفاعة الشركية والبدعية، كالتي تطلب من الآلهة التي يعبدها المشركون، وكطلب الشفاعة من الميت، فهذه شفاعة مردودة غير مقبولة عند الله سبحانه تعالى وتسميتها بالشفاعة من باب التنزل مع طالبيها لأنهم يطلبون منهم الشفاعة وفي الحقيقة هم واقعون في الشرك بالله سبحانه وتعالى.
أما أنواعها فهي كثيرة، وقد ذكر المصنف أن هناك شفاعتان خاصتان بالنبي صلى الله عليه وسلم.
فالأولى: الشفاعة العظمى وهي شفاعته لأهل الموقف لما يطول عليهم القيام يذهبون إلى الأنبياء والرسل فيطلبون منهم أن يشفعوا وكلهم يتعذر إلى أن يصلوا إلى رسولنا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه فيقول أنا لها أنا لها، وهذه هي الشفاعة العظمى وهي المقام المحمود للنبي صلى الله عليه وسلم.
الثانية: في تعجيل دخول أهل الجنة إلى الجنة.
وهناك شفاعة ثالثة خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك وهي: شفاعته لعمه أبي طالب بأن يخفف عنه العذاب كما ورد ذلك في الحديث عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال:"يَا رَسولَ اللَّهِ، هلْ نَفَعْتَ أبَا طَالِبٍ بشَيءٍ؟ فإنَّه كانَ يَحُوطُكَ ويَغْضَبُ لَكَ، قالَ: «نَعَمْ، هو في ضَحْضَاحٍ مِن نَارٍ، لَوْلَا أنَا لَكانَ في الدَّرَكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ.» [البخاري (ح٦٢٠٨) مسلم (ح٢٠٩)]
والضحضاح هو موقع قريب من قعر جهنم، وهو أخف أهل النار عذابًا، جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:" أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أبو طالِبٍ فقالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفاعَتي يَومَ القِيامَةِ، فيُجْعَلُ في ضَحْضاحٍ مِن نارٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي منه دِماغُهُ» [البخاري (ح٣٨٨٥) ومسلم (ح٢١٠)]

فهذه ثلاث شفاعات خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشاركه فيها أحد، وأما بقية الشفاعات فهي مشتركة مع بقية الشافعين وهم: النبيون والملائكة والمؤمنون، كما جاء في حديث الشفاعة:" فيَقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: شَفَعَتِ المَلائِكَةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وشَفَعَ المُؤْمِنُونَ، ولَمْ يَبْقَ إلَّا أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ..» [صحيح مسلم (ح١٨٣)]

فمن تلك الشافعات العامة:
الشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها، الشفاعة لمن دخل النار أن يخرج منها، الشفاعة لقوم من أهل الجنة في زيادة درجاتهم وثوابهم، الشفاعة لأصحاب الأعراف بأن يدخلوا الجنة، الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

المسألة الحادية عشر: خروج عصاة الموحدين من النار، فمن عقيدة أهل السنة والجماعة أن عصاة الموحدين الذين ارتكبوا الكبائر وماتوا ولم يتوبوا منها أنهم تحت مشيئة الله عز وجل، إن شاء عذبهم ثم يدخلهم الجنة، وإن شاء عفا عنهم ابتداءً وأدخلهم الجنة.
كما قال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغفِرُ أَن يُشرَكَ بِهِ وَيَغفِرُ ما دونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشاءُ وَمَن يُشرِك بِاللَّهِ فَقَد ضَلَّ ضَلالًا بَعيدًا﴾ [النساء: ١١٦]

أما الخوارج فهم يزعمون أن كل من مات على معصية فهو كافر وخالد مخلد في جهنم والعياذ بالله وهذا خلاف القرآن والسنة وإجماع المسلمين، فهذا قول شاذ، فمن أبرز علامات الخارجية أنه يكفر بالمعاصي ويوجب الخلود في النار لمن مات مصرًا على معصيته.

فدليل خروج عصاة الموحدين من النار ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" ...فَوالذي نَفْسِي بيَدِهِ، ما مِنكُم مِن أحَدٍ بأَشَدَّ مُناشَدَةً لِلَّهِ في اسْتِقْصاءِ الحَقِّ مِنَ المُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَومَ القِيامَةِ لإخْوانِهِمُ الَّذِينَ في النَّارِ، يقولونَ: رَبَّنا كانُوا يَصُومُونَ معنا ويُصَلُّونَ ويَحُجُّونَ، فيُقالُ لهمْ: أخْرِجُوا مَن عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ علَى النَّارِ، فيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدِ أخَذَتِ النَّارُ إلى نِصْفِ ساقَيْهِ، وإلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يقولونَ: رَبَّنا ما بَقِيَ فيها أحَدٌ مِمَّنْ أمَرْتَنا به، فيَقولُ: ارْجِعُوا فمَن وجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ دِينارٍ مِن خَيْرٍ فأخْرِجُوهُ، فيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يقولونَ: رَبَّنا لَمْ نَذَرْ فيها أحَدًا مِمَّنْ أمَرْتَنا، ثُمَّ يقولُ: ارْجِعُوا فمَن وجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ نِصْفِ دِينارٍ مِن خَيْرٍ فأخْرِجُوهُ، فيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يقولونَ: رَبَّنا لَمْ نَذَرْ فيها مِمَّنْ أمَرْتَنا أحَدًا، ثُمَّ يقولُ: ارْجِعُوا فمَن وجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ ذَرَّةٍ مِن خَيْرٍ فأخْرِجُوهُ، فيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يقولونَ: رَبَّنا لَمْ نَذَرْ فيها خَيْرًا».
وَكانَ أبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ يقولُ: إنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بهذا الحَدِيثِ فاقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: {إنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ويُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٠]، «فيَقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: شَفَعَتِ المَلائِكَةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وشَفَعَ المُؤْمِنُونَ، ولَمْ يَبْقَ إلَّا أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فيُخْرِجُ مِنْها قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قدْ عادُوا حُمَمًا، فيُلْقِيهِمْ في نَهَرٍ في أفْواهِ الجَنَّةِ يُقالُ له: نَهَرُ الحَياةِ، فَيَخْرُجُونَ كما تَخْرُجُ الحِبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ، ألا تَرَوْنَها تَكُونُ إلى الحَجَرِ، أوْ إلى الشَّجَرِ، ما يَكونُ إلى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وأُخَيْضِرُ، وما يَكونُ مِنْها إلى الظِّلِّ يَكونُ أبْيَضَ؟ فقالوا: يا رَسولَ

اللهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بالبادِيَةِ، قالَ: فَيَخْرُجُونَ كاللُّؤْلُؤِ في رِقابِهِمُ الخَواتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أهْلُ الجَنَّةِ هَؤُلاءِ عُتَقاءُ اللهِ الَّذِينَ أدْخَلَهُمُ اللَّهُ الجَنَّةَ بغيرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، ولا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يقولُ: ادْخُلُوا الجَنَّةَ فَما رَأَيْتُمُوهُ فَهو لَكُمْ، فيَقولونَ: رَبَّنا، أعْطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أحَدًا مِنَ العالَمِينَ، فيَقولُ: لَكُمْ عِندِي أفْضَلُ مِن هذا، فيَقولونَ: يا رَبَّنا، أيُّ شيءٍ أفْضَلُ مِن هذا؟ فيَقولُ: رِضايَ، فلا أسْخَطُ علَيْكُم بَعْدَهُ أبَدًا» [مسلم (ح١٨٣)]

وأما قول الشيخ فيبقى في الجنة فضل فينشئ الله لها أقوامًا فيدخلون الجنة، فدليله حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تَزالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فيها وتَقُولُ: هلْ مِن مَزِيدٍ، حتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُها إلى بَعْضٍ وتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بعِزَّتِكَ وكَرَمِكَ، ولا يَزالُ في الجَنَّةِ فَضْلٌ حتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لها خَلْقًا، فيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الجَنَّةِ» [البخاري (ح٧٣٨٤) مسلم (ح٢٨٤٨)]

ثم بين الشيخ أن تفاصيل ما يتعلق باليوم الآخر والأدلة عليه كثيرة مستفيضة متنوعة الدلالة والمصادر، وما جاء في سنة النبي صلى الله عليه وسلم يكفي ويشفي من ذلك مذكور منثور في مظانه من كتب أهل العلم.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلُ السُّنَّة وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ: خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.
وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ:
فَالدَّرَجَةُ الْأُولَى: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ مَا الْخَلْقُ عَامِلُون بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ، الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وأبدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلَائقِ.
فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اُكْتُبْ، قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.
فَمَا أَصابَ الْإِنْسَانَ لَمْ يكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الْأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ.
فَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ، بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا؛ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بكَتْبِ رِزْقِهِ، وأَجَلِهِ، وعَمَلِهِ، وشَقِيٍّ أو سَعِيدٍ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

فَهَذَا الْقَدَرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: فَهِيَ مَشِيئَةُ اللَّهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ولا في الْأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ إلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وتعالى، لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سبحانه وتعالى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مِنْ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي السماواتِ ولا في الْأَرْضِ إلَّا اللَّهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً وَاَللَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ.

وَالْعَبْدُ هُوَ الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ؛ وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إرَادَةٌ، وَاَللَّهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ كما قال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنْ الْقَدَرِ: يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ السَّلَفُ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا" اهـ

الشرح: شرع الإمام في الكلام في ركن الإيمان بالقدر خيره وشره وهو ركن من أركان الايمان الستة

والقدر: لغة من التقدير أو الحكم بشيء، والقضاء: لغة هو الإحكام والاتقان.

والقدر شرعًا: هو علمه سبحانه ومشيئته وخلقه وكتابته لما كان وما يكون أزلًا وأبدًا.

والقضاء شرعًا: هو ما قضى به الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير.

والفرق بينهما: أن القدر ما قدره الله في الأزل، والقضاء هو وقوع ما قدره الله عز وجل.

فمن عقيدة أهل السنة والجماعة الطائفة المنصورة الإيمان بالقدر خيره وشره وأنه كله من الله سبحانه وتعالى والإيمان بجميع ما يتضمنه الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره.

ولتحقيق ركن الإيمان بالقدر خيره وشره لا بد من الإيمان بأربعة مراتب، وقد ذكر الشيخ هنا درجتان وهذا تقسيم إجمالي، فالدرجة الأولى تحتوي على مرتبة العلم والكتابة، والدرجة الثانية تحتوي على مرتبة الإرادة والمشيئة، والخلق، أما على وجه التفصيل فهي أربع مراتب ترجع إلى هاتين الدرجتين، فالمراتب هي:

الأولى: العلم، بأن تعلم بأن الله يعلم بكل شيء ما كان وما يكون ما نسر وما نعلن، فكل شيء يعلمه الله سبحانه وتعالى ولا تخفى عليه خافية.

الثانية: الكتابة: بأن تعلم بأن الله عز وجل كتب كل شيء في اللوح المحفوظ فما أصابك من مصيبة أو أصابك من بلاء وما أصابك من فرح وسرور، وظيفتك، زواجك، أولادك، مكان إقامتك، تحركاتك، سكناتك مقعدك في الجنة أو مقعدك في النار، هل ستكون من أهل الشر، هل ستكون من أهل الخير، هذا كله قد علمه الله سبحانه وتعالى وكتبه في اللوح المحفوظ كما قال الشيخ أن الله لما خلق القلم قال له اكتب.. إلخ، فهذا حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر آيتين في الدلالة على ذلك، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «...ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا وقدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، ومَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، أفلا نَتَّكِلُ علَى كِتَابِنَا، ونَدَعُ العَمَلَ؟ قالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له، أمَّا مَن كانَ مِن أهْلِ السَّعَادَةِ فيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أهْلِ السَّعَادَةِ، وأَمَّا مَن كانَ مِن أهْلِ الشَّقَاءِ فيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَن أعْطَى واتَّقَى وصَدَّقَ بالحُسْنَى} الآيَةَ» [البخاري (ح٤٩٤٩) مسلم (ح٢٦٤٧)]

فمرتبة العلم والكتاب داخلتان في الدرجة الأولى، ومرتبة العلم هي التي كان ينكرها غلاة القدرية الأوائل، فقد كانوا ينكرون علم الله عز وجل بالأشياء حتى تقع فلما تقع يعلمها الله ، لذا تبرأ منهم السلف وحكموا بكفرهم، ومن ذلك ما جاء في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : فعن يحيى بن يعمر قال :كانَ أَوَّلَ مَن قالَ في القَدَرِ بالبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الجُهَنِيُّ، فانْطَلَقْتُ أنا وحُمَيْدُ بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ الحِمْيَرِيُّ حاجَّيْنِ، أوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنا: لو لَقِينا أحَدًا مِن أصْحابِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَسَأَلْناهُ عَمَّا يقولُ هَؤُلاءِ في القَدَرِ، فَوُفِّقَ لنا عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ داخِلًا المَسْجِدَ، فاكْتَنَفْتُهُ أنا وصاحِبِي أحَدُنا عن يَمِينِهِ، والآخَرُ عن شِمالِهِ، فَظَنَنْتُ أنَّ صاحِبِي سَيَكِلُ الكَلامَ إلَيَّ، فَقُلتُ: أبا عبدِ الرَّحْمَنِ إنَّه قدْ ظَهَرَ قِبَلَنا ناسٌ يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ، ويَتَقَفَّرُونَ العِلْمَ، وذَكَرَ مِن شَأْنِهِمْ، وأنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أنْ لا قَدَرَ، وأنَّ الأمْرَ أُنُفٌ، قالَ: فإذا لَقِيتَ أُولَئِكَ فأخْبِرْهُمْ أنِّي بَرِيءٌ منهمْ، وأنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، والذي يَحْلِفُ به عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ لو أنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فأنْفَقَهُ ما قَبِلَ اللَّهُ منه حتَّى يُؤْمِنَ بالقَدَرِ.." ثم روى حديث أم السنة المشهور. [صحيح مسلم (ح٨)]

لذا قال الشيخ أن هذا القدر يعني مرتبة العلم كان ينكرها غلاة القدرية قديمًا، ويوجد قدرية آخرون أقروا بمرتبة العلم، لكنهم ضلوا في مرتبة الكتابة، والإرادة والمشيئة، والخلق، والدرجة الثانية التي ذكرها الشيخ تتضمن المرتبة الثالثة والرابعة من مراتب القدر وهي:

الثالثة: الإرادة والمشيئة: ومعناها أن ما أراده الله عز وجل وشاءه هو الواقع ولا يخرج شيء في هذا

الكون عما أراده الله عز وجل كما قال الشيخ رحمه الله، وأنه لا يكون في ملكه وكل الكون ملكه، ما لا يريد.. إلى آخره.

والإرادة تنقسم عند أهل السنة والجماعة إلى قسمين:

الإرادة الكونية القدرية: وهو ما شاءه الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا يدخل فيه ما يحبه وما لا يحبه، لكن لا بد إما أن يقع هذا الأمر أو لا يقع فهو راجع لمشيئة الله عز وجل.

الإرادة الشرعية الدينية: وهو ما أراده الله عز وجل ويحبه ويرضاه، لكن قد يقع وقد لا يقع فالله يحب توبة العصاة لكن قد لا يتوبون، يحب توبة المبتدعة توبة المشرك، لكن قد يتوبوا وقد لا يتوبوا ويحب فعل الطاعات ولكن العباد قد لا يطيعون.

فهذا الفرق بين الإرادتين عند أهل السنة والجماعة.

أما القدرية المعتزلة والجبرية من الأشاعرة فلم يفرقوا بين الإرادتين فوقعوا في ضلال عظيم حتى قال المعتزلة القدرية بوجود خالقين: الله خالق العباد، والمخلوق الذي يخلق فعله! لذا قيل عنهم مجوس هذه الأمة.

والجبرية غلوا في إثبات المشيئة والإرادة حتى سلبوا من العبد الإرادة والاختيار فزعموا أنه مجبور على فعله، فكل فعل يفعله هو مجبر على فعله سواء من الصالحات أو السيئات، والله يحب ذلك كله! تعالى عن قولهم علوًا كبيرا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:" ثُمَّ قَالَتْ «الْقَدَرِيَّةُ» وَقَدْ عُلِمَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ؛ وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ؛ وَيَكْرَهُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ. قَالُوا: فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ مِنْ الْمَعَاصِي وَاقِعًا بِدُونِ مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ كَمَا هُوَ وَاقِعٌ عَلَى خِلَافِ أَمْرِهِ وَخِلَافِ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَقَالُوا: إنَّ مَحَبَّتَهُ وَرِضَاهُ لِأَعْمَالِ عِبَادِهِ هُوَ بِمَعْنَى أَمْرِهِ بِهَا؛ فَكَذَلِكَ إرَادَتُهُ لَهَا بِمَعْنَى أَمْرِهِ بِهَا فَلَا يَكُونُ قَطُّ عِنْدَهُمْ مُرِيدًا لِغَيْرِ مَا أَمَرَهُ بِهِ؛ وَأَخَذَ هَؤُلَاءِ يَتَأَوَّلُونَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ إرَادَتِهِ لِكُلِّ مَا يَحْدُثُ وَمِنْ خَلْقِهِ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ بِتَأْوِيلَاتِ مُحَرَّفَةٍ. وَقَالَتْ الْجَهْمِيَّةُ وَمَنْ اتَّبَعَهَا مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ: قَدْ عُلِمَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ؛ وَلَا يَكُونُ خَالِقًا إلَّا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ؛ فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَكُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ فَهُوَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَهُوَ خَالِقُهُ؛ سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ أَفْعَالُ الْعِبَادِ وَغَيْرُهَا؛ ثُمَّ قَالُوا: وَإِذَا كَانَ مُرِيدًا لِكُلِّ حَادِثٍ وَالْإِرَادَةُ هِيَ الْمَحَبَّةُ وَالرِّضَا؛ فَهُوَ مُحِبٌّ رَاضٍ لِكُلِّ حَادِثٍ؛ وَقَالُوا: كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ مِنْ كُفْرٍ وَفُسُوقٍ وَعِصْيَانٍ فَإِنَّ اللَّهَ رَاضٍ بِهِ مُحِبٌّ لَهُ؛ كَمَا هُوَ مُرِيدٌ لَهُ." [الفتاوى (٨/ ٣٤٠-٣٤١)]

الرابعة: الخلق: فالله خالق العباد وخالق أفعال العباد فكل مخلوق وأفعال المخلوقات داخلون في كونه من خلق الله عز وجل، ومعنى أن الله خالق أفعال العباد أي أعطى المخلوق قدرة على الفعل، فالعبد هو المصلي وهو الصائم وهو المجاهد وهو الكافر وهو المشرك وهو العاصي، فكل هذه الأفعال التي يفعلها العبد إنما وقعت باختيار العبد وإرادته ولم يجبره أحد على الفعل.

فهذه هي الدرجة الثانية التي يقصدها الشيخ وهي منشأ ضلال الجبرية والقدرية المعتزلة.

فالقدرية النفاة زعموا أن العبد هو الذي يخلق فعله بإرادته هو ومشيئته هو، ولا سلطان لله عليه في هذا!

والجبرية: هم الذي سلبوا العبد من الفعل والاختيار والإرادة فالله خالق العباد وفعل العباد فوقوع العبد في الكفر والضلال وسائر المعاصي كله بإجبار من الله سبحانه وتعالى.!

وقول الشيخ:" ويُخرِجُونَ عن أفعال الله وأحكامِهِ حِكَمَهَا ومصالحها"، يعني الجبرية يزعمون أن أفعال الله تعالى لا حكمة من وراءها ولا مصلحة، فالأمر والنهي لا حكمة ولا مصلحة منها! لذا يقال عن الأشاعرة الجبرية نفاة الحكمة.

والقدرية ينفون حكمة الله كذلك، فالله خالق الخير والشر، وهم ينفون أن الله يخلق أفعال العباد ومن أفعال العباد الخير والشر، فلو كان الله خالق أفعال العباد ومن أفعال العباد الشر معنى ذلك أن الله خلق الشر فيزعمون أن هذا يتنافى مع عدل الله وحكمته.

ولا شك أن هذا الكلام باطل فالله سبحانه وتعالى خالق العباد وأفعالهم كما قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعمَلونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فإن كان هو الذي يخلق العباد وأفعال العباد، فمن ضمنها تلك أفعال الشر، والله عز وجل وصف نفسه في أكثر من موضع في القرآن بأنه العزيز الحكيم، الحكيم الخبير، العليم الحكيم فما من شيء في هذا الكون إلا وهو عن علم وخبرة وحكمة من الله سبحانه وتعالى.

والله عز وجل خلق للعبد قدرة على الفعل، فأنزل الكتب وأرسل الرسل لبيان طريق الخير وطريق الشر للناس وبيّن ما يترتب عليه من سلوك طريق الخير وما يترتب على سلوك طريق الشر، فالناس يختارون طريق الخير وطريق الشر باختيارهم وإرادتهم، لكن لا ينسب الشر إلى الله عز وجل تأدبًا مع الله تعالى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:" والشر ليس إليك...".

فالشرور التي تقع إنما تقع من أفعال العباد بالقدرة التي أعطاهم الله إياها.

وقد يكون الأمر في نظر المخلوق أنه شر، لكنه في علم الله عز وجل خير له.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَمِنْ أُصُولِ الفِرقة الناجية: أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ: قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.
وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلْ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى فِي آيَةِ الْقِصَاصِ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَقَالَ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.
وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ، بَلْ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ، فِي مِثْلِ قَوْله تَعَالَى ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.
وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»
وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ؛ فَلَا يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ" اهـ

الشرح: لما انتهى المصنف من الكلام عن أركان الإيمان، انتقل للكلام عن حقيقة الإيمان وحكم مرتكب الكبيرة عند الفرقة الناجية والطائفة المنصورة حتى يسلم المسلم من الوقوع في ضلال الخوارج وضلال المرجئة.
فالإيمان: هو التصديق الجازم المستلزم للقبول والانقياد.
وحقيقته كما قال الشيخ: أنه قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.
والحد الجامع لتعريف حقيقة الإيمان: أنه قول وعمل واعتقاد، يزيد وينقص، والعمل من الإيمان.
والإيمان له ثلاث مراتب:
الأولى: أصل الإيمان، ويقال عنه مطلق الإيمان، يعني بدون هذا الأصل لا يصح إيمان المرء ويقابله الكفر، فأصل الإيمان أو مطلق الإيمان هو ما يوصف به المسلم المسرف على نفسه بالمعاصي لكنه لم يخرج من الإسلام إلى الكفر، وهو الظالم لنفسه.

الثانية: الإيمان الواجب، ويقال عنه الإيمان المطلق، يعني من كان عنده أصل الإيمان وزاد عليه بفعل الواجبات وترك المحرمات، وهو الذي يقال عنه المقتصد.

الثالثة: الإيمان المستحب، وهو زيادة على الإيمان الواجب فيفعل الواجبات ويزيد من فعل المستحبات ويترك المحرمات فهذا هو السابق بالخيرات، فجماع هذه المراتب الثلاثة في قوله سبحانه وتعالى ﴿ثُمَّ أَورَثنَا الكِتابَ الَّذينَ اصطَفَينا مِن عِبادِنا فَمِنهُم ظالِمٌ لِنَفسِهِ وَمِنهُم مُقتَصِدٌ وَمِنهُم سابِقٌ بِالخَيراتِ بِإِذنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الفَضلُ الكَبيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]

- فقول القلب: يعني الاعتقادات القلبية من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.
-وعمل القلب: يعني الأعمال القلبية كالخوف والرجاء والمحبة والخوف والرهبة والإنابة والتوكل إلى آخر ذلك.
-وقول اللسان: كالنطق بالشهادتين.
-وعمل اللسان: كالأذكار وقراءة القرآن والأعمال التي لا تصح إلا بالتلفظ بها كأذكار الصلاة من تسبيح تكبير.
-وعمل الجوارح: كالصلاة والصيام والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فجميع هذه الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، لذا يعتبر العمل جزء من الإيمان عند أهل السنة والجماعة، بخلاف الخوارج الذين يقولون أن العمل شرط صحة للإيمان، وترتب على ذلك أن أي عمل من الواجبات يُترك يكفر صاحبه! وإن مات على ذلك مات كافرا، فيخلد في جهنم ولا يخرج منها!
وقابلهم المرجئة فقالوا أن العمل ليس من الإيمان، لكن لو عمل فهذا كمال لإيمانه وزيادة خير، لكن لو لم يعمل فهو مؤمن يجب أن يدخل الجنة ولا يجوز أن يدخل النار!
وقد ذكرنا فيما مضى مذاهب المرجئة.

أما عند أهل السنة والجماعة فيرون أن هناك بعض الأعمال من أعمال الجوارح هي شرط لصحة الإيمان وبعضها من الواجبات التي يأثم تاركها وبعضها من المستحبات التي يزداد ثوابًا فاعلها.

فليست كل الأعمال على درجة واحدة، فالشهادتين والصلاة شرط لصحة الإيمان فالذي لا يأتي بالشهادتين ولا يصلي فليس بمؤمن، أما من ترك بقية الأركان كالصيام والزكاة والحج فحكمه يختلف بحسب حال الشخص.
لذا قال الشيخ عن الفرقة الناجية: أنهم لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، يعني ليس كل معصية يقع فيها العبد يحكم بكفره بل هذه معصية ويبقى هذا العاصي مؤمنًا بالله سبحانه فنقول

عنه مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته فعنده مطلق الإيمان= أصل الإيمان، أما الخوارج فكل معصية تعتبر من الكفر عندهم الذي يترتب عليه حبوط العمل واستحقاق الخلود في النار.

وقول الشيخ: "ولا يسلبون الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار...."
فالفاسق يشمل الكافر والمسلم العاصي، والمراد هنا بالمسلم العاصي، فقوله الملي أي الذي يكون داخل دائرة ملة الإسلام، ففسوقه الذي دون الشرك والكفر لا يخرجه من كونه من ملة الإسلام، فلا يُسلب هذا الفاسق اسم الإيمان بالكلية كما يقول المعتزلة والخوارج، فالمعتزلة يقولون لا نقول كافر ولا مسلم بل نقول في منزلة بين المنزلتين لكن في الآخرة هو كافر خالد مخلد في جهنم. أما في الدنيا فلا نعطيه اسم الإيمان ولا اسم الكفر، وأما الخوارج فيقولون هو كافر.
وقد وضحنا ذلك فيما سبق في وسطية أهل السنة والجماعة في أسماء الإيمان والدين.

وقول الشيخ:" وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق" يعني صاحب المعصية مرتكب الكبائر لا نعطيه اسم الإيمان المطلق فنقول أنه مؤمن كامل الإيمان كما يقول المرجئة، ففرق بين المقتصد والسابق بالخيرات وبين الظالم لنفسه، فهو بسبب ذنوبه ومعاصيه نصفه بالفسوق مع بقاء اسم الإيمان.

وقول الشيخ: "لا يعطي الاسم المطلق، ولا مطلق الاسم".
الاسم المطلق: يعني الإيمان الكامل فلا نقول عنه مؤمن كامل الإيمان كما تقول المرجئة.
مطلق الاسم: يعني مطلق الإيمان، فلا نسلبه مطلق الإيمان فنقول عنه كافر كما يقول الخوارج.
فهو مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْله تَعَالَى ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وَطَاعَةُ النَّبِيِّ فِي قَوْلِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ».

وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ: مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ.

فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ - وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ - وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ.

وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ - وَكَانُوا ثَلَاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ -: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْت لَكُمْ»

وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ قَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ.

وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ كَالْعَشَرَةِ، وَكَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الصَّحَابَةِ.

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه وَعَنْ غَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ.

وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانِ وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآثَارُ وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رضي الله عنهما بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟

فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا؛ لَكِنْ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ ثم علي.

وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ - مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ - لَيْسَتْ مِنْ الْأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّة، لَكِنَّ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا هِيَ «مَسْأَلَةُ الْخِلَافَةِ».

وكَذَلِكَ يؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ رضي الله عنهم أجمعين، وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ.

وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ويتولونهم وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي».

وَقد قَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّهِ - وَقَدْ شكا إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ - فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي» وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ النبيِّ ﷺ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الْآخِرَةِ، خُصُوصًا خَدِيجَةُ أُمُّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ.
وَالصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

وَيَتَبَرَّءُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ، وطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مساوئهم مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وعامة الصَّحِيحِ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ، إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَهُمْ مِنْ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ -إِنْ صَدَرَ-، حَتَّى إِنَّهُم يُغْفَرُ لَهُمْ مِنْ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مِنْ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.
وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ، فَكَيْفَ بِالْأُمُورِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ، إِنْ أَصَابُوا فَلَهُمْ أَجْرَانِ وَإِنْ أَخْطَئُوا فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ وَالْخَطَأُ مَغْفُورٌ لَهُمْ؟

ثُمَّ الْقَدْرُ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ مِنْ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وعدلٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ الْفَضَائِلِ، عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ وَأَنَّهُمْ هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى" اهـ

الشرح: شرع الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة الطائفة المنصورة والفرقة الناجية في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته ومنهم أزواجه
فمما تشتمل عليه هذه الفقرة من مسائل:
١- سلامة القلوب والألسنة لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته: فيجب أن نحبهم ونترضى عليهم ولا يكون في قلوبنا غل على أحد منهم ونقول كما أمرنا ربنا سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ جاءوا مِن بَعدِهِم يَقولونَ رَبَّنَا اغفِر لَنا وَلِإِخوانِنَا الَّذينَ سَبَقونا بِالإيمانِ وَلا تَجعَل في قُلوبِنا غِلًّا لِلَّذينَ آمَنوا رَبَّنا إِنَّكَ رَءوفٌ رَحيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]
وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تَسُبُّوا أصْحابِي؛ فلوْ أنَّ أحَدَكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بَلَغَ مُدَّ أحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ» [البخاري (ح٣٦٧٣) ومسلم (ح٢٥٤٠)]

٢- قبول ما جاء في الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم
٣- أنهم متفاوتون في الفضل، فأفضلهم المهاجرين ومن أفضل المهاجرين العشرة المبشرين بالجنة ثم بقية المهاجرين من أهل غزوة بدرثم أهل بدر من الأنصار ثم أهل بيعة الرضوان وعدتهم ألف وأربعمائة، ثم أهل أحد ثم من أسلم قبل فتح مكة على من أسلم بعد فتح مكة، وكلهم متفاوتون في الفضل وكلهم من أهل الجنة، لكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٤- الشهادة لهم بالجنة خاصة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم كالعشرة المبشرين بالجنة وهم كما في الحديث: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَعِيدٌ فِي الْجَنَّةِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ.» [رواه الترمذي(ح٣٧٤٧)]

وسعد: هو سعد بن أبي وقاص.
وسعيد: هو سعيد بن زيد.
وأما ثابت بن قيس فالنبي صلى الله عليه وسلم شهد له بالجنة فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ افْتَقَدَ ثَابِتَ بنَ قَيْسٍ، فَقالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللَّهِ، أَنَا أَعْلَمُ لكَ عِلْمَهُ، فأتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا في بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقالَ: ما شَأْنُكَ؟ فَقالَ: شَرٌّ؛ كانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وهو مِن أَهْلِ النَّارِ، فأتَى الرَّجُلُ فأخْبَرَهُ أنَّهُ قالَ كَذَا وكَذَا. [وفي رِوايةٍ:] فَرَجَعَ المَرَّةَ الآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقالَ: اذْهَبْ إلَيْهِ، فَقُلْ له: إنَّكَ لَسْتَ مِن أَهْلِ النَّارِ، ولَكِنْ مِن أَهْلِ الجَنَّةِ.» [البخاري (ح٣٦١٣)]
ومن شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة كثر كعكّاشة بن محصن، والحسن والحسين، والمرأة التي كانت تصرع، وعبدالله بن سلام رضي الله عنهم وغيرهم كثير.
ومن عقيدة أهل السنة والجماعة: أنهم لا يشهدون لمعين بجنة ولا بنار إلا من شهد الله عز وجل له أو شهد له رسوله صلى الله عليه وسلم بجنة أو نار، وعدا ذلك لا يجوز القول بأن فلان من أهل النار وفلان من أهل الجنة؛ لأن هذا من أمور الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل ومن أوحى إليه بذلك من أنبيائه ورسله.
٥- ترتيب الخلفاء فأولهم وأولاهم بالخلافة أبي بكر وهو عبدالله بن عثمان، ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين، فهؤلاء هم الخلفاء الراشدين المهديين الذين أمرنا بالتمسك بسنتهم والعض عليها بالنواجذ.

٦- تقديم عثمان على علي رضي الله عنهما لأنه قد حصل خلاف في بداية الأمر كما قال الإمام ثم استقر الأمر على تقديم عثمان على علي رضي الله عنهما، ومسألة الأفضلية يسع فيها الخلاف لكن الذي لا يسع فيه الخلاف هو الزعم بأن علي رضي الله عنه هو الذي يجب أن يكون خليفه قبل عثمان رضي الله عنه فإن هذا فيه ازدراء لما أجمع عليه الصحابة وما أجمع عليه أهل السنة والجماعة.

٧- ضلال الطاعن في خلافة الخلفاء الأربعة بالترتيب الذي استقر عليه أهل السنة والجماعة.
٨- محبة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم كلهم من بني هاشم من المتقين ومن ضمن أهله:
أزواجه وعلى وجه الخصوصة خديجة وعائشة رضي الله عنهما، وخديجة هي أم أكثر أولاده، باستثناء إبراهيم فهو من مارية القبطية، فأولاد النبي صلى الله عليه وسلم هم:
القاسم وعبدالله وزينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية، فهؤلاء كلهم من خديجة، ثم إبراهيم وهو آخرهم من مارية القبطية، وآل العباس، وآل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل الحارث بن عبدالمطلب هؤلاء كلهم كذلك من أهل النبي صلى الله عليه وسلم يجب محبتهم ونصرتهم وعدم الطعن فيهم كما

يفعل النواصب، ولا الغلو فيهم كما يفعل الروافض.
٩- البراءة من طريقة الروافض والنواصب: فالرافضة غلوا في آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص آل علي فغلو في علي ثم من كان من ذريته الحسن والحسين ثم خاصة من كان من ذرية الحسين، غلوا فيهم حتى رفعوهم فوق مكانتهم فجعلوهم أئمة معصومون عن الخطأ وأنهم أفضل من الأنبياء والرسل بل غلت طائفة منهم حتى زعموا أن عليًا رضي الله عنه هو الإله، وكفروا جميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلا قلة قليلة منهم.
والنواصب: هم الذين يقابلون الرافضة فناصبوا آل علي رضي الله عنه العِداء والبغض ومن ضمن النواصب: الخوارج، والخوارج زيادة على بغضهم لآل البيت كفروا الكثير من الصحابة كعثمان وعلي وطلحة والزبير وغيرهم.
فأهل السنة براءة من هاتين الطائفتين المنحرفتين.

١٠- السكوت عما شجر بين الصحابة من فتن وأن الأخبار والآثار الواردة إما مكذوبة وإما زيد فيها من الأكاذيب من أجل الطعن بالصحابة، وما صح وفيه بعض الأخطاء فهو مغمور في بحور حسناتهم، وتذكر هذه الأخبار خاصة في كتب التاريخ والمؤرخين يختلفون في تصانفيهم بحسب عقائدهم فحينما يأتي إلى الأحداث التي تخالف هواه، يكتبها بما يوافق هواه، لذا ينبغي الحذر عند قراءة كتب التأريخ بمعرفة عقيدة المؤرخ ومكانته العلمية والحرص على الكتب المحققة التحقيق العلمي الرصين بأيدي أهل السنة والجماعة.
١١- عدم اعتقاد عصمة الصحابة فهم بشر يخطئون ويصيببون، لكنهم قوم عدول مرضيون عند رب العالمين، وهم خير الناس بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم فالطعن فيهم طعن في شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم والطعن في شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر مخرج من الملة.
فهذا باختصار ما يتعلق بهذه الفقرة التي ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الْأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الْأُمَّةِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" اهـ

الشرح: من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء، لكن إيمان أهل السنة وسط بين الغلاة والجفاة، فهناك من يغلو في الإيمان بكرامات الأولياء حتى جعلوا من ليس بولي: من الأولياء وبالغوا فيما يزعمون أنها كرامات وهي خرافات وشركيات كالذين يزعمون أن الولي فلان في كل وقت صلاة -وهو في بلده- يذهب ويصلي في مكة! وكما يفعل من يدخلون السكاكين في أجسادهم أو يدخلون في النار فلا يصابوا بضرر من ذلك، وغير ذلك من الأمور التي يخادعون بها عامة الناس من الجهلة.

وبين من ينفون وجود الكرامات مطلقًا كالفلاسفة والمعتزلة وأمثالهم.

فالكرامة: يعني علامة عظيمة يعطيها الله عز وجل من أراد من عباده الأولياء الأتقياء الصالحين من غير الأنبياء دلالة على كرامتهم عند الله وصلاحهم وقربهم منه، ولتكون نصرة للإسلام.

لكن من هم الأولياء؟ الولي هو كل مؤمن تقي ﴿..إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] فالذي يحافظ على المكتوبات ويتجنب المحرمات فهذا ولي من أولياء الله عز وجل، ثم هم يتفاوتون في المرتبة بحسب الإيمان في قلوبهم التي يترتب عليها أعمالهم من الإكثار من الطاعات أو الاقتصاد بها.

وخوارق العادات: يعني ما يكون خارج عن المألوف والمعتاد

وقد ذكر الإمام نوعين من الكرامات:

الأول: أنواع العلوم والمكاشفات: يعني يكون عنده علم ليس عند غيره، والمكاشفات أن تظهر له أشياء لم تظهر لغيره.

ويمثلون العلماء بالمكاشفات مثل قصة سارية بن زنيم وهو أحد القادة لجيوش عمر رضي الله عنه وكان عمر في المدينة وكشف له تحصن الأعداء واستعدادهم بالمكيدة لجيش المسلمين فنادى عمر سارية فقال له: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل.

يعني تحصن بالجبل، فسمع جارية صوت عمر رضي الله عنه.

الثاني: أنواع القدرة والتأثيرات: مثل قصة مريم عليها الصلاة والسلام وهزها لجذع النخلة، وكقصة الذي عنده علم من الكتاب الذي كان بحضرة سليمان عليه الصلاة والسلام في مجلسه وطلب منهم

سليمان عليه السلام أن يأتوا له بعرش ملكة سبأ، فجاء به بطرفة عين.

وضرب الشيخ أمثلة على ذلك بقوله: كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيره، يعني مثل قصة الفتية أصحاب الكهف.
فهذه الكرامات موجودة إلى قيام الساعة.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: " ثُمَّ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ: كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ: هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحدٍ، ولِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.
وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الِاجْتِمَاعُ وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ.
(وَالْإِجْمَاعُ) هُوَ الْأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ.
وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ؛ وَالْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ: هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الِاخْتِلَافُ وَانْتَشَرَتْ الْأُمَّةُ" اهـ

الشرح: بيّن شيخ الإسلام في هذه الفقرة طريقة أهل السنة والجماعة في تلقيهم لدينهم، فإنهم يتلقون هذا الدين من الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح، ولا يقدمون الآراء على الكتاب والسنة، والإجماع معناه: اتفاق طائفة من العلماء المجتهدين في عصر من العصور بعد النبي صلى الله عليه وسلم على حكم شرعي.

فأهل السنة والجماعة يزنون أعمال الناس القولية والفعلية التعبدية بميزان الكتاب والسنة وإجماع سلف هذه الأمة، فما وافق القول والفعل الكتاب أو السنة أو إجماع السلف فهو مأخوذ ومعمول به، وما خالف الكتاب أو السنة أو إجماع السلف فهو مردود ولو قال بذاك القول من قاله.
والسلف الصالح المقصود في هذه الفقرة من كلام الإمام أي الصحابة والتابعين واتباع التابعين وهم

القرون الثلاثة المفضلة الذين زكاهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ..» [البخاري (ح٦٤٢٩) مسلم (ح٢٥٣٣)].

قال عبد الله بن الإمام أحمد:" قلت لأبي: إذا لم يكن عن النبي في ذلك شيء مشروع يخبر فيه عن خصوص أو عموم؟ قال أبي: ينظر ما عمل به الصحابة، فيكون ذلك معنى الآية، فإن اختلفوا: ينظر أي القولين أشبه بقول رسول الله، يكون العمل عليه" اهـ
[مسائل الإمام أحمد رواية ابنه عبد الله]

فهم كانوا أعلم الناس وأكثر الناس اجتماعًا على الخير، ثم حصل الاختلاف فيمن بعدهم وقل العلم وكثرة الأقوال فعسر ضبط الإجماع لانتشار العلماء وتباعد الديار وصعوبة حصر الإجماع، لكن إن ثبت وجب العمل به.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:" ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ: يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

وَيَرَوْنَ إقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ، وَالْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ، مَعَ الْأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ.

وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ﷺ، وَقَوْلِهِ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ: كَمَثَلِ الْجَسَدِ الواحِدِ إذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ».

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

وَيَدْعُونَ إلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا».

وَيَنْدُبُونَ إلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَك، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَك.

وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْإِحْسَانِ إلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ.

وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالِاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ، بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا، وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ أَوْ يَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا أَوْ غَيْرِهِ: فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلَّا وَاحِدَةٌ - وَهِيَ الْجَمَاعَةُ - وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنْ الشَّوْبِ: هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَفِيهِمْ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولُوا الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمْ الْأَبْدَالُ: ومنهُمُ الْأَئِمَّةُ، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، وَهُمْ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظاهرينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ ولا من خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».
فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَانَا وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً، إنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.
والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصلواتُهُ على خَيرِ خَلقِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ." اهـ

الشرح: ختم الإمام رحمه الله تعالى رسالته بذكر جملة من الأخلاق وصفات أهل السنة والجماعة التي ينبغي أن يتزينون بها ويتحلون بها، فلا يكفي أن تكون على عقيدة سليمة وتكون أخلاقك رديئة، بل سلامة العقيدة من أثارها الأخلاق الكريمة.
فمن تلك الخصال والأخلاق والصفات التي يتصف بها أهل السنة والجماعة:
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجبه الشريعة: يعني تدل على الخير وتنهى عن المنكر مما دل عليه الكتاب والسنة أنه خير أو شر، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعيرة من شعائر هذا الدين لا يجوز تركه، وقد مدح الله عز وجل هذه الأمة لكونه تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فقال عز وجل ﴿كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنّاسِ تَأمُرونَ بِالمَعروفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤمِنونَ بِاللَّهِ وَلَو آمَنَ أَهلُ الكِتابِ لَكانَ خَيرًا لَهُم مِنهُمُ المُؤمِنونَ وَأَكثَرُهُمُ الفاسِقونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]

وقال سبحانه ﴿وَلتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ يَدعونَ إِلَى الخَيرِ وَيَأمُرونَ بِالمَعروفِ وَيَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ المُفلِحونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «... مَن رَأَى مِنكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلكَ أضْعَفُ الإيمانِ.» [صحيح مسلم (ح٤٩)]

فمراتب إنكار المنكر: باليد لمن له سلطة على غيره أن يغير باليد كالحاكم والسلطان والأب والرئيس، كل من كان مسؤالًا على غيره ممن تحت رعايته فله أن يغير المنكر بيده.
ومرتبة الإنكار باللسان: هي لمن ليس له سلطة على غيره فينكر بلسانه وهذه عامة لجميع الناس.
ومرتبة الإنكار بالقلب: هي لمن ليس له قدرة الإنكار بالقلب ولا اللسان لضعفه، فأقل أحواله أن ينكر بقلبه ودلالة وجود الإنكار في القلب هو عدم البقاء في مكان المنكر بل يجب عليه مفارقته إلا إن تعذر كالذي يكون في طيارة أو سيارة أو عمل لا يستطيع الابتعاد عن هذا المكان فلا بد من البغض القلبي وأن يتمعر قلبه لهذا المنكر.

ومن شروط إنكار المنكر: ألا يترتب على إنكار المنكر منكر أكبر منه، بل إما أن يزول المنكر بالكلية وهذا هو المقصود والمطلوب، أو تخفيف هذا المنكر. وتفصيل ذلك يطول، يراجع في مظانه من الكتب والمباحث الخاصة بفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن صفات أهل السنة إقامة الحج والجهاد والجمع يعني صلاة الجماعة وصلاة العيد: مع الحكام والأمراء إن كانوا هم الأئمة في الصلوات، والقادة في الجهاد، سواء كانوا من الأتقياء أو كانوا من الفجار الذين لم يخرجهم فجورهم عن دين الإسلام، فإثمهم لهم والأجر لنا، ومصلحة الأمة باجتماعها مقدم على تفرقها واختلافها.

ومن صفات أهل السنة النصيحة لغيرهم كما في الحديث الصحيح عن تميم الداري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: لِلَّهِ ولِكِتابِهِ ولِرَسولِهِ ولأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعامَّتِهِمْ» [مسلم (ح٥٥)].

ومن صفاتهم وأخلاقهم كذلك كما ذكر الشيخ الدعوة لمكارم الأخلاق كبر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار لمن تجاوره وأن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وأن تصبر على الابتلاء وترضى وتسلم وتعلم بأن هذا من تقدير الله سبحانه وتعالى.

ومعالي الأخلاق أي عاليها كالرحمة والكرم والعفو وبذل المال ونحو ذلك، والابتعاد عن سفسافها يعني البعد عن الأخلاق الرديئة كالكذب والغش والنميمة والغيبة وما شابه ذلك.

فأهل السنة والجماعة في كل ما يفعلونه إنما ينطلقون من الكتاب والسنة الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فالفرقة الناجية والطائفة المنصورة هم أصحاب الدين الصحيح الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما ورد في حديث الافتراق.

وأهل السنة والجماعة فيهم الصديقون والشهداء والصالحون، والأبدال يعني القائمون على نصرة الدين كلما ذهب أحدهم جاء بدله من يقوم مقامه في نصرة الدين.

فهذه الفرقة الناجية والطائفة المنصورة لو تكالب عليها جميع الأمم فهم المنصورون وهم الظاهرون وهم أهل الحق لا يضرهم تكالب الأعداء فإن العاقبة لأهل التقوى.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.